مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الشُّورَىٰ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الشورى

أ. د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الشورى

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ حمٓ ١ عٓسٓقٓ ٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦ ﴾

ابتدأت سورة الشورى بِمْثِل ما ابتدأت به بعض سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة، كسورة البقرة، وسورة آل عمران، وسورة العنكبوت وسورة الروم. كما تماثلت افتتاحيتها بسورة غافر، وسورة فُصِّلَت، وكذلك بما بعدها، من سورة الزخرف، وسورة الدخان، وسورة الجاثية، وسورة الأحقاف. فقال تعالى ﴿ حمٓ ﴾ وزادت بثلاثة أحرف أخرى، وهي ﴿ عٓسٓقٓ ﴾ أي: ما مجموعه خمسة أحرف من الحروف المقطعة، يعجز عن إدراك دلالتها الإنسان، ليقف مذهولاً أمام حرفين من الأحرف، لا يعرف عنها شيئاً، وليقف على أسلوب لم يسمع به من قبل، ولم يخطر بباله هذا البناء اللفظي العجيب، مما يدفعه شوقاً لمتابعة ما بعد تلك الحروف المقطعة. وأمَّا عِلْمُ معناها ومرادها فعند الله تعالى، فهي سِرٌّ من أسرار الله تعالى في كتابه، نؤمن بها ونقرؤها كما جاءت. وهي من الذي لا يُفَسَّر. وتُلتمس فوائده. وقد تم ذكر بعض فوائد ذلك في سورة البقرة ولله الحمد والشكر.

ومن فوائد ذلك ما ذكره القرطبي رحمه الله تعالى: بأنها محك واختبار لمن يؤمن ويُقِرُّ بها كما جاءت، وأما الوقوف على فوائدها، فقال جمع كبير من العلماء: بل يجب أن نتكلم فيها؛ ونلتمس الفوائد التي تحتها[1] ومن فوائد الحروف المقطعة شد الانتباه، قال قطرب عن العرب: أنهم كانوا ينفرون عند سماع القرآن، فلما سمعوا ﴿ الٓمٓ ﴾ و ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا له صلى الله عليه وسلم، أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في

(١) القرطبي، لجامع لأحكام القرآن (١٠٩/١)

أسماعهم وآذانهم، ويقيم الحجة عليهم.[١] مما يبين أن من أوجه البدء بها هو لشد الانتباه والأذهان لما بعدها من البيان، لما في ذلك من التشويق للمتابعة.

فلما نزلت هذه الحروف المقطعة بَقَوا متحيرين، فقد خاطبهم بما لا يفهمون، لِيُقبلوا على استماعه، لأن النفوس تتطلع إلى ما غاب عنها معناه، فإذا أقبلوا إليه خاطبهم بما يفهمون، فصار ذلك كالوسيلة إلى الإبلاغ، إلا أنه لا بد له من معنى يعلمه غيرهم، ويكون معلوماً عند المُخَاطب. فهذا الكلام يعم جميع الحروف[٢] وهذا يُفيد أهمية التشويق في التعليم، وأهمية لفت الانتباه، وشد ذهن المتعلم والمتلقي والمدعو والموعوظ لما يُراد تعليمه إياه ووعظه وإرشاده ودعوته إليه، أو إخباره به، وإشعاره بحاجته لما سيسمعه، حتى يعلم ما فيه من علم ومعرفة، أو نصيحة، أو غيرها مما يُراد نقله إليه.

بعد أن افتتح الله سبحانه وتعالى سورة الشورى ببعض الحروف المقطعة بقوله عَزَّ وجل ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ لإيقاظ الأذهان وشد الانتباه إلى إعجاز القرآن العظيم، وبما يثبت أنه من عند الله العزيز الحكيم، أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فبعد ذلك أوضح تبارك وتعالى مماثلة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في نزول الوحي عليه بمن سبقه من المرسلين. فتوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم مباشرة بذلك، حتى يعرف ويدرك الناس أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ليس بمنأى عن مماثلة من سبقه من المرسلين. فقال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فكذلك أنت أيها الرسول أوحى إليك ربك الله بمثل ما أوحى لمن سبقك من المرسلين ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ أي: أوحى إليك بالقرآن وبعموم شريعة الله تعالى بمثل من سبقك من المرسلين، بما نزل عليهم من الكتب ومن تعاليم الدين. ليثبت أن ما جاء به الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعاً، بل جميع من سبقه من المرسلين كانوا كذلك. فأين وجه الاستغراب لمن استغرب من نبوته عليه الصلاة والسلام. فينفي بذلك سبحانه وتعالى أوجه الاستغراب، ليزيل الجهل المركب عن عقول المنكرين.

ثم أخبر تبارك وتعالى بأن الذي أوحى إليك أيها النبي وأوحى لمن قبلك من المرسلين عليهم الصلاة والسلام هو ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فبدأ ذلك بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي يفيد أنه الإله المعبود، وهو الاسم الذي لا يُطلق على غيره، والذي يدل على الجلالة والعظمة، والألوهية أنها له وحده عَزَّ وجل، ثم ألحقه تبارك وتعالى بأعظم الصفات ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ والعزيز هو: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله

(١) المرجع السابق (١٠٩/١)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٧/١)

شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة. والصفة الثانية: ﴿ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. ليعطي عبده وغيره بيان عظمته جَلَّ جلاله، وأدب البدء، وأخلاق الخطاب، ومنهج التعريف.

وقد ورد الإيحاء بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ ﴾ لإفادة استمرار الوحي ومعاودته وتكراره في حياته صلى الله عليه وسلم. ومن دقائق البيان تأخير قوله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ إلى خاتمة الآية لمنع تكرار الذي أوحى، فشملت بهذا السياق أن ﴿ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ أوحى إليك وأوحى لمن قبلك. وهذه من بلاغة السياق، وتفادي التكرار. بمعنى: لم يقل تبارك وتعالى: يُوحي إليك الله العزيز الحكيم وكذلك يوحي إلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم. فكان سياقها في أجمل وأجل النظم.

وقد تصدر البيان بقوله تعالى ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ لإفادة التشبيه والمماثلة، بعقد الصلة بين ما أوحى به الله تعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى من سبقه من المرسلين عليهم الصلاة والسلام. كما أغنى تصدرها في الآية الكريمة عن تكرارها أو تكرار ما يماثلها مرة أخرى قبل الْمُشَبَّه به، وهو قوله تعالى ﴿ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ فلم يقل تبارك وتعالى: كذلك أوحي إليك كما أوحي إلى الذين من قبلك. أو: كذلك أوحي إليك وكذلك أوحي إلى الذين من قبلك. وهذا من بلاغة البيان، بالاستغناء عن زوائد التكرار من غير حاجة.

ثم يخبر الله تعالى بعظيم ملكه الذي يستوجب خضوع كل شيء له سبحانه وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ فإن لله سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة كل جهل بها وعنها. فهو الذي له ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة.

وقد شملت دلالة ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ كل ما هو مرتفع من الأفلاك والأجرام وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وشملت ﴿ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ كلما هو عليها أو خارج على سطحها، أو بداخلها، مما في بطنها. فاستوعبت ﴿ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان ومما غاب عنه، فقصرت حواسه عن إدراكه، وهذا من عظيم البيان في كلام الرحمن. وأفادت جملة

﴿ لَهُۥ مَا فِي ﴾ القصر، بقصر الخلق والإنشاء والإيجاد من العدم له وحده عَزَّ وجل، فله الاختراع والابتداع عَزَّ وجل. وما يتبع ذلك من وجوب الحمد والطاعة لمن له كل شيء سبحانه وتعالى، فلا يليق بمخلوق أن يخرج عن طاعة خالقه وتدبيره سبحانه وتعالى، أو يعبد غيره، أو يشرك معه غيره في ملكه وخلقه العظيم.

ثم أثنى تبارك وتعالى على نفسه بما هو حق له جَلَّ جلاله، وبما يناسب عظيم ما خلق وأبدع، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ فإن ربكم هو المتصف بالعلو والعظمة ﴿ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ﴾ أي: العلي بذاته وقدره، ومنزلته، وبقهره وسلطانه، وتدبيره، وحكمه. وهو ﴿ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ أي: ذو العظمة، الذي له كمال السلطان والقوة والقدرة والجلال، والذي عظم خلقه، وعظم عطاؤه، وعظم تدبيره، وعظمت رحمته، وقوته، وقهره، ونصره. فهو الذي امتلك العظمة من كل وجه، فلا عظيم غيره سبحانه وتعالى.

وبعد أن عَظَّم الله تعالى ما خلق، وعَظَّم ذاته العظيمة بما هو له سبحانه وتعالى دون غيره، يخبر بطواعية ما خلق من المخلوقات، وإذعانها له كما يريد سبحانه وتعالى، وعبادتها له وحده جَلَّ شأنه وعظم سلطانه. فقال العزيز الحكيم ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ فمن عظمة الرحمن تبارك وتعالى، وجَلَّ جلاله تكاد السماوات يتفطرن خشوعاً وطاعة وهيبة وتذللاً، والملائكة يسبحون بالثناء والتمجيد لله تعالى، بل ويستغفرون لمن في الأرض من العباد. بينما الإنسان على ضعفه فهو يجادل ويعارض الحق، ويجحده إلا أهل الإيمان. فهو بيان يستدعي من الإنسان التفكير والامتثال بتلك المخلوقات في قوة طاعتها وخشوعها وتذللها لله سبحانه وتعالى.

فعلى عظمة السماوات وقوتها فإنها أوشكت أن تتشقق تعظيماً وتمجيداً وخشوعاً لربها تبارك وتعالى ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ ﴾ أي: تكاد السماوات يتشققن ويتصدعن من عظمة الله تعالى وهيبته وجلاله من فوق بعضها البعض. قال الضحاك والسدي رحمها الله تعالى: يتفطرن: يتشققن من عظمة الله تعالى وجلاله من فوقهن. وقيل أن المعنى: تكاد كل واحدة منها تتفطر فوق التي تليها من قول المشركين: اتخذ الله ولدا(١) وقال ابن جرير رحمه الله تعالى: تكاد السماوات يتشققن من فوق الأرضين من عظمة الرحمن وجلاله(٢) مما يدل على قوة خشوع هذا الخلق العظيم من هيبة الله تعالى وجلاله، وكذلك من جُرم ما يسمعون من قول المجرمين الفظيع الذي لا يليق بعزته وجلاله عَزَّ وجل، فأوشكت أن تتساقط عليهم لتفطرها بالتشقق.

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥٢٦/٤)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٦/٢٠)

فاستوعب البيان شدة وقوة تعظيمها لله تعالى، وشدة استنكارها من أن يعبد المخلوق غير الله عَزَّ وجل، وأن يقول في خالقه ما لا يليق به، سبحانه وتعالى عما يقولون علواً عظيما.

ثم يخبر تبارك وتعالى بشأن الملائكة، من أنهم يمجدون الله تعالى، ويستغفرون لمن في الأرض، فالأمر الأول هو قوله عَزَّ وجل عنهم ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ والتسبيح هو التنزيه والتعظيم والإجلال لله تعالى. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾ فيسبحون الله تعالى، تنزيهاً له عَزَّ وجل عن النقائص، ويقرنون ذلك التسبيح بالتحميد ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الذي يفيد الحمد والشكر، والمدح والثناء لله رب العالمين. فهم يمجدون وينزهون ويعظمون ويقدسون ربهم عَزَّ وجل بالتسبيح والتحميد الذي يليق به جَلَّ جلاله من الأذكار والمحامد التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى.

والأمر والشأن الثاني الذي تقوم به الملائكة الكرام هو الاستغفار لأهل الأرض من المؤمنين ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يطلبون من الله الغفور الرحيم أن يغفر لأهل الأرض من المؤمنين. قال الضحاك رحمه الله تعالى: لمن في الأرض من المؤمنين[١] وقال السدي رحمه الله تعالى: للمؤمنين[٢] كما ورد ذلك في سورة غافر ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾ فمن رحمته جَلَّ جلاله أن الملائكة يسألون ويطلبون من الله تعالى أن يغفر للمؤمنين، فقال تعالى عنهم ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيسألون الله تبارك وتعالى أن يغفر للمؤمنين

ثم يؤكد سبحانه وتعالى بأن من صفاته العظيمة الجليلة المغفرة والرحمة لمن تاب ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إن ربكم هو الغفور لذنوب عباده، وأنه رحيم بهم، بما يفيد الترغيب والحث لعباده بأن يستغفروا ربهم، ويتوبوا إليه، فإن ربكم متصف بالرحمة من أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد ما تابوا منها، وندموا على ما كان منهم، وأقلعوا عن الذي تابوا منه. وإنها لنعمة عظيمة أن يغفر الله تعالى لمن تاب وأناب، كما أن رحمته جليلة عظيمة بأن يرحم عباده المؤمنين. وفي هذا ترغيب لعباد على الاستقامة، وعلى سؤال ربهم المغفرة. فالحمد لله رب العالمين. اللهم اغفر لنا وارحمنا.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٥/١٦)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٦٨/٢٠)

وقد بدأت الآية الكريمة بحرف التنبيه ﴿أَلَآ﴾ إذ تصدرت أداة الاستفتاح ﴿أَلَا﴾ هذا التوجيه الجليل، والذي أفادت التنبيه لما بعده من البيان، بإثارة الذهن نحو اليقظة والانتباه، كما أنها متضمنة للقصر، بقصر صفة كمال المغفرة والرحمة الخالصة لله عَزَّ وجل. كما لحقتها نون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ لإفادة توكيد ما بعدها، ثم تلاها اسم الإشارة ﴿هُوَ﴾ الذي يفيد هو لا غيره عَزَّ وجل. فأعطت تلك الحروف مجتمعة: الحصر والتوكيد لِمَا بعدها من المغفرة والرحمة بأنها له سبحانه وتعالى. ليعطي تراكيب السياق أن الله تعالى هو الغفور الرحيم وليس لغيره هذه الصفة، وبما يفيد المبالغة في التوكيد، والحصر مع التنبيه، وشد الانتباه، ثم تلاها المبالغة أيضاً في المغفرة والرحمة ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهما من صيغ المبالغة، التي تفيد امتداد مغفرته ورحمته سبحانه وتعالى إلى أقصاها وكمالها. بما يبين عظيم رحمة الله تعالى بالعباد إذا استقاموا، وأنه سبحانه وتعالى لا يريد من عباده إلا الطاعة، بأن يعبدوه وفق ما شرع، لأن الحكمة من خلقهم هو لعبادته سبحانه وتعالى. ويُظهر لهم كريم صفاته بأنه هو ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ لا غيره أحد متصف بكمال هذا. وفي هذا اطماع للعباد في التوبة والاستغفار وطاعة ربه، ورجاء رحمته.

فجمعت الآية الكريمة بين الرحمة والمغفرة ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وفي هذا تطمين لهم بأسماء ربهم سبحانه وتعالى وصفاته المناسبة لحاجة ورجاء عباده. وفي ذلك ما يُعَلِّم المسلم استحضار ما يوافق حال التائب والمستغفر من صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى. فإن في المغفرة والرحمة ما يجعل العبد يطمع ولا يقنط، فالغفور من قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ فإنه اسم من أسماء الله تعالى الْحُسنَى المتضمن لصفة المغفرة. وهو من صيغ المبالغة، التي تفيد امتداد المغفرة إلى أقصاها وكمالها بمحو الذنوب وسترها. وكذلك ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ هو الاسم المتضمن لصفة الرحمة، والدالة على كثرتها، والمبالغ فيها لجميع الخلائق منه سبحانه وتعالى. فنحمد الله تعالى على نعمة الرحمة والمغفرة التي اتصف الله تعالى بها. ولولا ذلك لهلك العباد من كثرة ذنوبهم.

وبعد بيان مغفرته ورحمته سبحانه وتعالى، يقرن معها شدته بمن أشرك به عَزَّ وجل، ولم يمتثل لربه جَلَّ شأنه بما هو حق له من توحيده في عبادته، فقال تبارك وتعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فالذين اتخذوا الشركاء مع الله تعالى ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ سيحفظ الله تعالى عليهم ما كان من شركهم، حتى يوفيهم ما يستحقون من العذاب يوم القيامة. فسبحانه وتعالى هو الرقيب عليهم. ثم يحدد تبارك وتعالى مسؤولية الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الشأن

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ فلست أيها الرسول بوكيل عليهم، بأن تحفظ وتقيد ما كان منهم، ولا أن تعاقبهم وتجازيهم، بما يفيد أن الله تعالى لم يكلفك بغير تبليغ رسالته لهم، وأن مسؤوليتك أيها النبي صلى الله عليه وسلم في أنك مبشر ونذير، والله على كل شيء وكيل. وفي هذا غاية التهديد والوعيد لهم.

كما أوضح وبين هذا الإعلام والتوجيه الكريم أن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، ومن ذلك أنه لم يكلف المرسلين بما لا يطيقون. وأن عظمة الله تعالى لا يدركها المخاليق، فإنه عزَّ وجل يحصي ما كان من عباده فرداً فرداً، ثم يوفيهم ما يستحقون. كما يفيد ذلك في جانب التكاليف البشرية أهمية تحديد المسؤولية، بأن لا يُكلَّف المسؤول بما ليس من قدرته، وأن توزع المسؤوليات بما يرفع العبء عن الغير. فإذا كان الله تعالى لم يكلف المرسلين إلا بما يناسب طبيعتهم البشرية، فإنه من باب أولى بأن لا يكلف العبد من يماثله إلا بما هو من مقدوره في الأعمال والمهن وغير ذلك.

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢ ﴾

يُظهر ويبين الله تعالى حكمته وكرمه وامتنانه بهذا القرآن العظيم على رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى الناس أجمعين بما يدل على عظمة هذا الكتاب العزيز، وعلى شرفه، وعظيم ما فيه من الآيات والذكر والتشريع الحكيم، فقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ فإنه بمثل ذلك الإيحاء الواضح لمن كان قبلك من المرسلين أوحينا إليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ قرآناً باللغة العربية التي هي لغتك ولغة قومك. وبما يفيد أنه واضح المعاني وجلي الألفاظ والدلالات. فقد أنزلنا القرآن عربياً وليس بغيرها، بما يفيد المدح والثناء بكون القرآن الكريم بلسان عربي، وأيضاً ليس فيه عذر لمن لم يؤمن به، لما فيه من إعجاز

المضمون والبيان، بما فَصَّل فيه سبحانه وتعالى بالتنويع والتكثير لكل ما يحتاجه العباد. لعلهم بذلك يتقون الله تعالى، فيعملوا بالطاعات والامتثال، ويجتنبوا المنهيات، وأن يُحدث لهم هذا القرآن ما يتذكرون به الحق والحقائق، وما تستنهض به الفطرة السوية، فيكون لهم ذلك موعظة بلزوم الحق.

وقد ابتدأت الآية الكريمة باسم الإشارة ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ لإفادة التعظيم بما أوحى سبحانه وتعالى، مع إفادة المشابهة. أي: وكما أوحينا إلى المرسلين من قبلك، كذلك أوحينا إليك ما أنزلنا من القرآن أيها النبي صلى الله عليه وسلم. ومن دقائق البيان التخصيص، فقال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ فقد خصه وسماه الله سبحانه وتعالى بنوع اللسان الذي أنزل به ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ ليفيد المدح والثناء. فهو بلسانك العربي، وباللغة العربية، ليعطي ويبين منزلة التكريم للنبي عليه الصلاة والسلام، ولهذه اللغة العربية الممدوحة بهذا القرآن العظيم الذي نزل بها. وفيه تكريم للسان العربي، الذي يلزم بهذا الشرف والتشريف العناية بهذه اللغة التي تشرفت بأن نزل القرآن الكريم بها. وفي هذا تكليف للعرب بنقل دين ربهم سبحانه وتعالى لغيرهم من أهل اللغات الأخرى، وما يتطلب ذلك من تَعَلُّم لغة غيرهم، وتعليم غيرهم اللغة العربية، ليسهل نقل ما ينقلونه من الدين، وما يتطلب ذلك من استخدام كافة الوسائل لتحقيق شرف المسؤولية.

ثم أظهر سبحانه وتعالى مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم، مع تعيين المستهدفين بكتابه القرآن الكريم، فقال عَزَّ وجل﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ فمهمتك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم هي الإنذار ﴿ لِّتُنذِرَ ﴾ بما يفيد التخويف من معصية الله تعالى، وما يترتب عليها من العذاب، وبيان منهج الطاعة، وما يترتب على الطاعة من الثواب العظيم. وأما المستهدفين فهم ﴿ لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ فبدأ بألصق وأقرب الأمكنة، التي هي مركز الأرض ﴿ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ وهي مكة المكرمة، التي فيها الكعبة المشرفة، وهذا دليل على منزلة مكة ومكانتها، وشرفها وما شرفها الله تعالى به، من القدسية، وببيته العتيق. وأنها الأم لجميع قرى الدنيا، ولأنها الأعظم شأناً ومنزلة، فجعل جميع القرى تابعة لها، وهي مركزهم، فهي بمثابة الأم. وبالتالي جميع العباد الصالحون المؤمنون يتجهون إليها، كقبلة لصلاتهم، وللحج، وللعمرة، ففعلاً إنها ﴿ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ ﴾ بلا خلاف.

ثم تدرج إلى ما حولها، فعطف ما حولها عليها ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ليمتد ويسري هذا الإنذار لسائر وجميع الناس، لجميع قرى الأرض كلها. وفي هذا التخصيص والتعيين آية عظيمة، إذ أن هذا الذي يكون من مقدوره صلى الله عليه وسلم أثناء حياته، من غير تحديد مسافة الامتداد، ليظهر الإعجاز التكليفي للرسول

صلى الله عليه وسلم. وإلا رسالته لكافة الناس، كما قال تعالى في سورة الأعراف ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ فيصبح المعنى: لتنذر أهل مكة وما حولها من القرى، وتنذر الناس جميعاً. وأن التعيين والتخصيص بمكة وما حولها لاستيعاب زمن بعثته صلى الله عليه وسلم، وما يتحقق بها من تمدد المسافة جهة الأمصار التي تجاوزت وامتدت في عهده عليه الصلاة والسلام إلى اليمن، وإلى جهة الشام، ونجد، وما بعدها. وفي ذلك دقة في البيان.

كما أفاد ذلك في الأمور التكليفية بين الناس، قياساً على هذا التوجيه الكريم، أهمية التدرج، وأهمية التحديد والتعيين، وأهمية حساب الوقت والزمن، وأن الأمور والأهداف والغايات لا تتحقق في وقت واحد، أو في وقت وجيز، وأن التخطيط السليم يكون بعيد المدى، من حيث الزمن، ومن حيث المكان، والمسافة التي يتحقق فيها الهدف المراد تحقيقه. وأن المرء قد لا يرى كافة ثمرة جهوده في حياته، فقد تحقق امتداد وتَوَسُّع الإسلام في عهد الصحابة رضي الله عنهم، مجاوزة لما كان في عهده صلى الله عليه وسلم، ثم في العهود المتتالية، حتى أصبح الإسلام اليوم في جميع مشارق الأرض ومغاربها.

ثم عَيَّن وخص تبارك وتعالى يوم القيامة من بين مضامين الإنذار، بإنذار مخصوص، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وتنذر الناس مما سيكون في ﴿ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ ﴾ الذي تجتمع فيه الخلائق، وهو يوم ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ لا شك في وقوعه، وهو يوم القيامة، فينقسم الناس إلى قسمين: ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ فالأول: ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ وهم المؤمنون جميعاً، الذين أطاعوا الله واتبعوا المرسلين، وخاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. والثاني: ﴿ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ أي: في النار الموقدة التي تتسعر وتتوقد بهم، وهم أهل الكفر، الذين كفروا بما جاء به المرسلين.

وقد أوضح وبَيَّنَ سبحانه وتعالى عظيم سلطانه وقهره وكمال علمه، من أن الناس سينقسمون إلى فريقين ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ فليس معنى ذلك أن الفريق العاصي خرج عن مشيئته عَزَّ وجل، فإن الله تعالى قادر على أن يجعله مُرغماً على الإيمان وكمال الطاعة، ولكن الله تعالى جعل لكل إنسان ما اكتسب. ليصحح بهذا البيان أفهام العباد. فقال تعالى ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فلو أن مشيئة الله وتعالى وإرادته اقتضت أن يكون الجميع على ملة واحدة من الطاعة لكان ذلك ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ فلو شاء عَزَّ وجل لَقَدَّر الأسباب التي تجعلهم على الطاعة والامتثال. بما يفيد ليس أن عصيان فريق النار عن طاعته، هو خروج

عن مشيئته تبارك وتعالى، وإنما هو خروج عن طاعته عَزَّ وجل، بما منح الله تعالى الإنسان من المشيئة. لأن مشيئة الله تعالى متحققة، فلا يزيغ عنها أحد، وأما مشيئة الإنسان واختياره فهي منحة من الله تعالى لجنس الإنسان، حتى يستوفي كل إنسان ما اكتسب من الطاعة أو المعصية، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما أوضح وبين ذلك سبحانه وتعالى في سورة التكوير، وفي سورة الشمس، فقال تعالى في سورة التكوير ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فجعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى، فلا يعني ذلك أن الإنسان منفرد بها، بل إن الله سبحانه وتعالى هو الذي منحها للإنسان بمشيئته، ويمنعها بمشيئته. فيصحح ويعلم سبحانه وتعالى مفاهيم عباده، حتى يعلموا ما يكون منهم، وما يجب عليهم، وأن ذلك لا يعني أنهم خارجين عن مشيئته. كما يصحح أفهام من حاد فهمه عن الصواب. وهذا من عظيم التدبير والحكمة والعدل من الله العزيز الحكيم. وأما في سورة الشمس، فقال تعالى ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ فعرفها وأفهمها ما يجعلها تدرك الخطأ من الصواب، والحق من الباطل، حتى تتحمل مسؤولية ما يكون منها.

فَيُثبت الله تبارك وتعالى كمال مشيئته، بأن اختلاف الناس إلى مؤمن وكافر، ليس هو من باب الخروج عن قدرته عَزَّ وجل ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ فلو شاء لجعلهم على هدى ودين واحد، وهو الإسلام، ولكن قضت حكمته حصول الاختلاف، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو شاء أن يجعلهم كلهم مسلمين لفعل[١] قال السعدي رحمه الله تعالى: لو شاء الله تعالى لجعل الناس كلهم ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يُدخل في رحمته من شاء من خواص خلقه[٢] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: أن الله تعالى خلقهم قابلين للهدى والضلال، بتصاريف عقولهم وأميالهم، ومَكَّنَهم من كسب أفعالهم، وأوضح لهم طريق الخير، وطريق الشر بالتكليف، فكان منهم المهتدون، ومنهم الظالمون[٣] فلو شاء لجعلهم على هدى ودين واحد، وهو الإسلام، ولكن قضت حكمته عَزَّ وجل أن يتحمل كل إنسان ما اكتسب من الخير أو الشر، فحصل بين الناس الاختلاف، فمنهم من طاوع هواه وشهواته على حساب ترك الحق، ومنهم من طاوع الحق، وألزم شهواته وهواه منهج الله سبحانه وتعالى، وهو دينه القويم.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (١٣٢/٤)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤١١/٤)

(٣) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/٣١-٣٢)

ثم يخبر سبحانه بكريم تفضله على من شاء أن يرحمه ﴿ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ﴾ فيدخل من اصطفاه سبحانه وتعالى واختاره لرحمته، فإنه يوفقه لدينه وامتثال طاعة ربه عَزَّ وجل، كرماً وتفضلاً منه سبحانه وتعالى. ليفيد ذلك بيان مشيئته وتحققه لمن أراد توفيقه وخصه من لدنه بالرحمة. وقد ورد في سورة هود ما يزيد هذا بياناً، فقال تعالى ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩ ﴾ ثم استثنى من هذا الاختلاف أهل الحق ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ وهم أهل الحق، الذين آمنوا وصدقوا رُسُلَه، فإنهم لا يختلفون في توحيد الله تعالى، وما جاءهم عن الله عَزَّ وجل، فجعلهم على الإسلام ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ ﴾فقد خلقهم بما وهبهم من الإرادة والاختيار، فهناك أهل الشقاء، وهناك أهل السعادة.

وأما الفريق الذي اختار المعصية بالكفر، فقال تعالى عنه ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فالظالمون الذي ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا المرسلين باتهامهم بالكذب، وكذبوا بما أنزل الله تعالى من الكتب، فليس لهؤلاء ما يمنعهم مما يستحقون من عذاب ربهم عَزَّ وجل. وقد استوفت دلالة ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ أوجه الظلم من كل وجه. فاستحقوا هذا الوعيد ﴿ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ استحقاقاً فعلياً دقيقاً. فكما أن صفة حالهم مخالفة لحالهم في الدنيا، إذ كانوا يتناصرون ويتعاونون بينهم على أهل الصلاح في الدنيا، فإنهم يوم القيامة، والحساب والجزاء على نقيض ذلك ﴿ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ فإنهم مغلوبين بالإهانة والذل والعذاب ﴿ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ ﴾ فليس لهم من يتولى شأنهم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ولا من يتولى مناصرتهم، والدفاع عنهم، لأن الجميع مقهور بقوة الله تعالى، وتحت حكم الله عَزَّ وجل وسلطانه وسلطته. فهو نفي قاطع، وحكم جازم. فليست هناك قوة من دون الله تعالى تنفعكم بأي نفع أيها الظالمون. فمن كان يعتقد أن له ولي من دون الله تعالى ينصره، ويمنعه من العذاب؛ فإن حسبانه خاطئ، فلا قوة له، ولا لأحد أن يمنعكم وينصركم أيها الظالمون، وأن يحول بينكم وبين العذاب. ليفيد التعليم، والتحذير، والإنذار من ذلك اليوم، وأن واجب كل أحد من الناس أن يسعى لمصلحته بالنجاة من عذابه سبحانه وتعالى، فكل إنسان يتحمل ما كان منه.

ثم أنكر سبحانه وتعالى على أولئك المشركين اتخاذهم آلهة يوالونها من دونه عَزَّ وجل. وقد ورد الإنكار بصيغة الاستفهام التعجبي، الذي يُنكر عليهم اتخاذهم الشريك من دون الله عَزَّ وجل. فقال تعالى ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ فهو سؤال استنكار ولوم على

هذا الصنيع وهذا الفعل، بما يفيد أنهم لم يتفكروا في آيات الله تعالى من الإحياء والإماتة، وأن الله عَزَّ وجل على كل شيء قدير، فلو فكروا فيها لما اتخذوا آلهة البتة من دون ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى. وبدأت الآية الكريم بصيغة الاحتجاج المعجز لهم، بما يحمله من إقامة الحجة الدامغة على باطلهم، إذ استهل مطلع الآية الكريمة في إقامة الحجة بسؤال استنكاري، مَطْلَعُهُ حرف ﴿أَمِ﴾ وهي هنا همزة استفهام إنكاري. معطياً بذلك صورة المبالغة في اعوجاج منهجهم وفهمهم، وما اتخذوه من دون ربهم جَلَّ جلاله ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ فقد ورد البيان بتجاهلهم، إذ توجه السؤال عنهم لأهل الإيمان الذين يمثلون أولي الألباب، ولم يتوجه لهم. ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ تحقيراً لهم. كما ورد مطلع الآية الكريمة بما يفيد الاستعظام والتعجب من حالهم، وبالأسلوب الاستنكاري لِمَا اتخذوا من معبودات عاجزة عن أن تكون ولياً لهم في دنياهم، وعند إعادة البعث بعد الموت. فيؤكد سبحانه وتعالى بهذا السؤال استعظام وفظاعة ما تخذوا من الآلهة. سؤال يستنكر حدوث هذا الفعل الشنيع. كيف يكون منهم ذلك؟ إذ أنه لا يمكن ذلك باعتبار الأدلة العقلية، وباعتبار الأدلة الكونية، وباعتبار الأدلة الشرعية. وهو استفهام إنكار وتعجب للمبالغة في التوبيخ، وتجهيل عقولهم التي اتجهت إلى الشرك المنافي للحقائق، وما يجب على العاقل مما يراه من الأدلة الكونية والشرعية. ووصف آلهتهم بأنها من دونه عَزَّ وجل﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ لبيان حقارتها، وأنهم اتخذوا الحقير وتركوا العزيز، وكل شيء هو دونه عَزَّ وجل ضعيف حقير.

فكيف اتخذ هؤلاء أولياء من دون ربهم؟ معتقدين أنهم يستغنون بها عنه عَزَّ وجل، مع أن ربهم هو المتولي شأن الخلق جميعاً ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾ فأفاد البيان حصر وقصر الولاية الحقيقية الصحيحة في الله سبحانه وتعالى فقط. إذ تفيد دلالة ﴿ٱلۡوَلِيُّ﴾ القرب والدنو، والرب والمعبود، فهي تجمع جميع أنواع العلاقة بين العبد وربه، من النصرة، والحفظ، العطاء والإنعام، وغير ذلك، لأن الولي هو المعطي لوليه، كما أن ولاية الخالق ليست كولاية المخلوق للمخلوق، فولاية المخلوق للمخلوق مبنية على المعاوضة بالمنافع. كما ورد ﴿ٱلۡوَلِيُّ﴾ هنا بصيغة العموم، ليفيد ولي الشأن لمن خلق. فهو المدبر لأمور عباده أجمعين. فكيف يتجهون لمن فقد هذا؟ ويتركون من يملك تدبير الأمر والشأن للخلق كله؟ فهو العليم بهم وبكل شيء، سبحانه وتعالى.

والولاية نوعين: ولاية عامة لكل أحد، لأن الذي يتولى شؤون الخلق هو الله سبحانه وتعالى. والنوع الثاني من الولاية هي: الولاية الخاصة: هي ولاية النصر والتأييد والحفظ كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ

﴿ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ ﴾ فأثبتت الآية الكريمة من سورة البقرة الولاية الخاصة للمؤمنين، ونفي الولاية عن الكافرين، فليس للكفار ولاية خاصة من الله سبحانه وتعالى. قال السعدي رحمه الله تعالى: فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عموماً بتدبيره، ونفوذ القدر فيهم، ويتولى عباده المؤمنين خصوصاً بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم[١] والولي في سورة الشورى وردت بصيغة العموم التي أفادت الولاية العامة التي كان يجب على الكفار الأخذ بها، ولا يمنحونها لتلك المعبودات. لأن الله تعالى هو الولي الذي يجب أن يتولاه عبده بعبادته وطاعته والتقرب إليه، لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يتولى عباده عموماً بتدبيره، ونفوذ القدر فيهم، ويتولى عباده المؤمنين بولايته الخاصة، بالتوفيق والتأييد والتيسير والهداية.

ومن تمثل بالولاية الحقيقة يوسف عليه الصلاة والسلام كما ورد ذلك في سورة يوسف ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ أنت الذي تتولى أمري في الدنيا والآخرة، فأنت الذي أستنصر وأستعين به، وأنت الذي نصرتني وتنصرني، وأعنتني وتعينني، ووفقتني وتوفقني، وهديتني وتهديني، وأنه لا تدبير لي إلا بتدبيرك وتوفيقك، وهو اعتراف بأن الله تعالى ولي نعمته التي أنعم بها عليه سبحانه وتعالى في الدنيا، وكذلك الذي يلي أمره وشأنه في الآخرة بما يشاء سبحانه وتعالى، وفي هذا تفويض أمره لله تعالى في دار الدنيا ودار الآخرة. ثم يذكر تبارك وتعالى خاصية أخرى ليست عند آلهتهم التي اتخذوها أولياء من دون الله عَزَّ وجل، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فربكم هو الذي يحي الموتى، بينما الذين اتخذتموهم من دون الله تعالى من الأصنام والأوثان وغيرها عاجزة عن نفسها.

ثم تدرج السياق الكريم بالْمُخَاطَبين من القدرة الخاصة بإحياء الموتى ﴿ وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ إلى عموم القدرة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إن ربكم مُتَّصِف بكمال القدرة، فهو قادر على كل شيء يريده، فيتحقق كما أراد سبحانه وتعالى. فإن ما أوضحه وبينه لكم أعظم دليل وآية وحجة على قدرة ربكم سبحانه وتعالى على إحيائكم بعد موتكم وفنائكم. فإن الله تبارك وتعالى قادر على كل ما يريد، من غير استثناء. وفي هذا تعليل وبيان لكمال القدرة. فجملة ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ تستوفي كل شيء، وتنفي التبعيض، وتُثبت كمال القدرة، وقد ورد مطلعها بحرف التوكيد ﴿ وَهُوَ ﴾ الذي يؤكد بحصر كمال القدرة له جَلَّ جلاله. فكل هذا

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤١١/٤)

البيان يوضح للعباد عظمة الله تعالى، وأنه على كل شيء قدير. وبالتالي يجب الإيمان باليوم الآخر، وبالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء، والجنة والنار.

أفمن هذه قدرته العظيمة، أيعجز عن إعادة الخلق بعد الموت؟ فإن الإجابة: لا يعجزه شيء سبحانه وتعالى. لأنه عَزَّ وجل على كل شيء قدير ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ كما اتضح وتبين لكم أيها الْمُخَاطَبُون عظيم قدرته في مخلوقاته، فإذاً لماذا يتجهون للعاجز من المخلوقات، ويتركون الخالق القادر؟ فإنه إنكار لشأن ما اتخذوه، بأنه في غير محله. وجملة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ تقرر بما سبق من البيان أن له عَزَّ وجل كمال القدرة، وتنفي العجز كلياً. فإنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فمن له كمال القدرة، فإنه ينتفي عنه سبحانه وتعالى ما هو من خصائص الإنسان من العجز، والمشابهة، بل ومن جميع الخلق. فليس كمثله شيء سبحانه وتعالى. فيقررهم الله تعالى بهذا البيان إلى أن يتفكروا، ويتأملوا. مما يبين أن منهج الله تعالى قائم على الحقائق، وأن أسلوبه قائم على الإقناع بالأدلة الظاهرة البينة. كما يكشف هذا عن جهل الإنسان، وحاجته لمن يستثير ذهنه نحو الحق. وأن الحق واضح وجلي، ولا يحيد عنه إلا مستكبر. كما يُعَلِّم هذا الأسلوب الرباني المؤمنين بمنهجية التعامل مع الغير بالحجج والبراهين، وأن حجج الله تعالى عظيمة بوضوحها، وكمال بيانها، وظهورها وصدعها بالحق المبين لمن تبناها في دعوته.

ثم يوجه سبحانه وتعالى عموم عباده إلى المرجعية الصحيحة حتى تستقيم أمورهم. ويأتي البيان من خلال توجيهه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَىۡءٍ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ فما تختلفون فيه من شأن أمور دينكم ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فإن مرد الحكم فيه إلى الله تعالى وليس لكم، من خلال ما ورد في كتابه القرآن العظيم، وسنة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم. ومن دقائق البيان أن ورد الاختلاف بصيغة القصر والحصر ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَىۡءٍ ﴾ فجميع ما اختلفتم فيه من شيء، بل أفادت ﴿مِن شَىۡءٍ ﴾ الاحتواء العام لكل صغيرة وكبيرة في الدين، فإن عليكم الرجوع إلى ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يؤكد تبارك وتعالى أن مصدر هذا الحكم هو بالرجوع إلى الله تعالى فيما اختلفتم فيه ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾ فذلكم الحاكم بهذا الحكم ﴿ٱللَّهُ رَبِّى ﴾ إنه من عند الله ربي الذي ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ اعتمدت عليه في جميع شأني، وبالتالي لا أتوكل على غيره، بل هو المعتمد، وأن

هذا هو منهجي ودأبي. وورد التوكل بصيغة الماضي ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ فأفاد أن هذا هو مناط شأني فيما مضى، وما أنا قائم عليه اليوم، وما سأكون عليه، فلم أوكل على غيره. وكذلك ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي: إليه سبحانه وتعالى أرجع، في جميع الأمور، بما يفيد هو ملاذي، وهو الذي استمد منه الأمر والنهي، فلا أعصيه. وهذا غاية الإنابة والطاعة والامتثال التي يحبها الله تعالى ويرضاها. وقد وردت الإنابة بصيغة الفعل المضارع ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ لتفيد التجدد مع كل أمر وشأن جديد، فإنني أرجع إليه، وأستمد منه الحكم. كما ورد البيان بأسلوب التعظيم ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ فاستُعمِل اسم الإشارة للبعيد، من أجل إظهار التعظيم والرفعة، أي: ذلكم الله العظيم ﴿رَبِّي﴾ بما يعطي ويفيد عظمة حكمه جَلَّ جلاله، مع وجوب تعظيم ما حكم به جَلَّ في علاه، والامتثال له، والتوكل عليه، والإنابة إليه.

ومن دقائق سياق مبنى جملة ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أنها وردت بحال ما يتمثل به كل مؤمن، وما يجب أن يقوله لغيره ممن يدعوه إلى الشرك، وذلك اعتقاداً وتصديقاً جازماً، وعملاً به، ومعلماً ومرشداً لكل أحد بأنه ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ فإن دلالاتها تمثل المنهج والقاعدة والقوة العظيمة لكل مؤمن، وما يتبع ذلك الاعتقاد من التوكل على الله تعالى في كل أمر وشأن، وكذلك من الرجوع إلى الله تعالى في كل شيء، سواء عند الحاجات، أو عند المدافعة، أو عند الطلب، أو عند حصول التقصير والخطأ، أو عند الاشتباه، أو عند التحقق من الأمر والحكم الشرعي، فإنه يُنيب إلى الله تعالى، وإلى شريعته.

فإنها قاعدة يسير عليها المؤمن ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ وقاعدة يتوجه بها عند كل موقف ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ ودعوة يعلنها لكل أحد ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ لتكون منهجاً عملياً قائماً، ومنهجاً دعوياً في كل موطن. وعلاجاً لكل أمور الحياة ومساعيها المختلفة.

ويستمر الوصف والتأكيد لعظمة الله تعالى بما خلق ودبر في الكون وفي الأنفس وفي الأنعام، بما يستوجب طاعته والامتثال له، والتوكل عليه، والإنابة إليه عَزَّ في علاه، فقال سبحانه وتعالى ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ

كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴾ إن الله سبحانه وتعالى هو ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: مخترعها ومبدعها، فالذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته. وقد شمل خلق السماوات كل ما هو مرتفع من الأفلاك والأجرام وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وشملت الأرض كل ما هو عليها أو خارج على سطحها، أو في داخلها وباطنها. بما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة ما خلق، الدال على أن كل شيء عبد له سبحانه وتعالى، وتحت مشيئته وسلطانه، وأنه القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود، بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فهو الذي له ما خلق من السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. ثم يتدرج البيان التعليمي من العموم والكل إلى ذوات الْمُخَاطَبين بأنفسهم ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ فإن الله تعالى هو الذي أوجد لكم من أنفسكم أزواجاً، ولم يجعله من جنس آخر. ليحصل الائتلاف والتوافق. وقد بدأ البيان الرباني بتقرير حقيقة الإيجاد ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ الذين هم أساس مكونات الإنجاب، فلا يمكن أن يكون هناك إنجاب من غير التزاوج بين الذكر والأنثى، فشد انتباههم إلى هذه الحقيقة، التي تدل على انفراد الله تعالى بتحقيقها لكم، وأكدها سبحانه وتعالى بحصر وقصر إيجادها على ذاته الكريمة، بتقديم ﴿ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ على الفعل ﴿ جَعَلَ ﴾ والذي أفاد الخلق والإيجاد، وعَيَّن الأزواج تحديداً بأنها من جنسكم ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ﴾ وهو امتنان من الله تعالى بهذه النعمة، ولم يجعلها من جنس آخر غير جنس الإنسان، وهي محل تفكر وتأمل، ليخرج منها المخاطَب بأن ذلك آية من آيات الله تعالى.

ثم يتدرج البيان من إثبات نعمة التزاوج، وأنها من نفس جنس الإنسان إلى أيضاً تزاوج الأنعام ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا ﴾ وكما خلق لكم ربكم من جنسكم أزواجا فإنه كذلك خلق من جنس الأنعام أزواجاً. ومن رحابة البيان أنها كذلك تجمع معها دلالة: خلق لكم من الأنعام أصنافاً من الذكور والإناث، والتي ورد تفصيلها في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى ﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا

ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾
فبين الله تعالى أنه خلق ثمانية أزواج: يعني ثمانية أفراد، وسُمَّي الفرد زوجاً في هذه الآية، لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة للآخر، ويقع لفظ الزوج على الواحد، فيقال: هما زوج، وهو زوج. ويقول: اشتريت زوجي حمام: أي ذكراً وأنثى، والحاصل أن الواحد إذا كان منفرداً، سواء كان ذكراً أو أنثى، قيل له فرد. وإن كان الذكر مع أنثى من جنسه، قيل: لهما زوج. ولكل واحد على انفراده منهما زوج، ويقال: لهما أيضاً زوجان، ومنه قوله تعالى في سورة القيامة ﴿ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ ﴾[1] ليتبين من ذلك عظيم قدرة الله تعالى، وعظيم كرمه عَزَّ وجل، وعظيم امتنانه على الإنسان بتزاوج الأنعام، ليحصل بها التكاثر والتتابع والتتالي الذي يفتقر إليها الإنسان ولا يستغني عنه في طعامه وشرابه. بما يستوجب التفكر والتدبر الذي يترتب عليه الانقياد لله بالطاعة والخلوص من الشرك.

ثم يذكر سبحانه وتعالى العلة والسبب من ذلك التزاوج، لإظهار حكمته ونعمته وامتنانه عَزَّ وجل، وعظمة تدبيره الذي يستوجب توحيده وطاعته، وشكره، فقال تبارك وتعالى ﴿ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ ﴾ أي: يبثكم، ويكثركم، وينشركم. فهو خَلْقٌ وتدبير مقصود، ولم يكن لا غاية ولا قصد فيه. ليدرك الإنسان عظمة تدبيره سبحانه وتعالى في كل ما خلق.

ومن الفوائد الإجرائية في الاستدلال: التدرج من خلق الأجرام العظيمة، وهي السماوات، ثم الأرض، ثم ما هو متعلق بخلق الإنسان من خلال تناسله بالتزاوج، ثم خلق الأنعام بتناسلها، ليدل ذلك على أن خلق السماوات والأرض أعظم من خلق الإنسان إذ قدم خلقها على التناسل البشري. وهذا التدرج يبين دقة الأسلوب في نقل المعرفة والإفهام للمُخَاطَبين، كما أن جميع ما سبق من البيان هو استدلال على ألوهيته وربوبيته سبحانه وتعالى، وأنه المستحق للطاعة وما يتبعها من فروع العبادة، ووجوب الحمد، لأن في حمد العبد لربه جَلَّ شأنه اعتراف له عَزَّ وجل بجميع النعم، واعتراف له بالعبودية والربوبية والألوهية.

فبعد هذا التدرج في إثبات وبيان عظمة الله تعالى بما خلق، يقرر عَزَّ وجل انتفاء الشبيه والمثيل له تبارك وتعالى في كل شيء، فقال عَزَّ وجل ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ ليس هناك شبيه ولا مثيل لربكم في كل شيء، فاستوعب النفي إثبات الكمال الذي لا يُقاس بأحد من خلقه، واستوعب النفي المماثلة في الخلق والإيجاد والتدبير والقهر والسلطان، وفي الأسماء وفي الصفات الجليلة. ليتعلم العبد بهذا البيان ألا يقيس صفات وأفعال الله تعالى وقدرته على شيء من خلقه. ثم أضاف تبارك وتعالى إثبات صفتين عظيمتين، بأنه

---

[1] الشوكاني، فتح القدير (١٧٠/٢)

﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فإن ربكم فقط هو الذي أحاط بكل شيء سمعاً ورؤية. فأخبر سبحانه وتعالى عن ذاته الكريمة في شأن إحاطته بكل شيء ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فإن الله تعالى هو لا غيره ﴿ ٱلسَّمِيعُ ﴾. الذي يسمع كل شيء، وكل صوت من مخلوقاته، ومنها أقوال عباده، وما يكون بينهم، وما يتَخَفَّون به عن غيرهم، وما يتناجون به، وما يناجي به المؤمن ربه، أو يخافت به غيره. وكذلك هو ﴿ ٱلْبَصِيرُ ﴾ الذي يرى كل شيء، فلا يغيب عنه شيء من أحوال الكون، وأحوال جميع خلقه، على كثرتهم وتعددهم وتنوعهم، واختلاف أماكنهم. وبالتالي لا يخفى ولا يغيب عليه عَزَّ وجل شيء من أحوال الناس، وحاجاتهم، فيعطي كلاً ما يستحقه في الدنيا والآخرة. وفي هذا تحذير للمشركين مما يخوضون فيه من الباطل، فإنه سبحانه وتعالى يسمع كل شيء، ويرى كل شيء، فلا يعزب عن علمه تبارك وتعالى مثقال ذرة ولا أدنى من ذلك، بل إنه محيط بكل شيء علماً وقدرة وتصريفاً.

وأفاد السياق الكريم قوة التأكيد بأن الله تعالى هو السميع البصير لا غيره، وأنه هو المخصوص بذلك، فلا يشاركه فيه غيره. فبدأ البيان باسم الإشارة ﴿ وَهُوَ ﴾ لقصر وتوكيد ما بعدها من الإخبار والإعلام، ولإفادة القصر والحصر على كمال السمع والبصر. الذي أحاط بكل شيء علماً بالسمع والبصر، وما يتبع ذلك من القدرة وكمال المشيئة. فأفادت جملة ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ قصر كمال السمع وكمال الرؤية له عَزَّ وجل، وليس لغيره من المخلوقات إلا ما خصها به من محدودية السمع والبصر، فهو المتفرد بكمال ذلك. فكيف يذهل المخلوق عن هذا؟ فلا يخاف ويهاب ربه، وهو الذي يعرف منه كل شيء. مما يفيد جهل من يتخفى بالمعاصي، وجهل من عبد غير الله تعالى. وفي هذا كمال الإنذار للعباد من معرفة وعلم الله تعالى الذي أحاط بكل شيء علما ومعرفة وقدرة. وكذلك فيه ترغيب للمؤمنين بأن ربكم يسمع منكم ما تدعون وتطلبون وتقولون من الطاعة، ويبصر أحوالكم، فلن يضيع مما تعملون شيئاً من الخير والطاعة. وسيجزيكم به خير الجزاء.

ثم يزداد ويستمر بيان عظمته وجلاله سبحانه وتعالى، فقال تبارك وتعالى ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ فلربكم وحده سبحانه وتعالى لا شريك له ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فربكم يملك السماوات والأرض وما فيها، ويملك التصرف في الأرزاق والعطاء كيف يشاء ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ﴾ أي: المفاتيح، مفاتيح خزائن ﴿ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فيُقَدِّر ويعطي ما يشاء، ويمنع ما يشاء. وله وحده ملك هذه الخزائن في السماوات والأرض، فاستوعب ذلك الملك كله له جَلَّ جلاله. فربكم يملك السماوات والأرض وما فيها، ويملك التصرف في الأرزاق والعطاء كيف يشاء، فله الإرادة

المطلقة، فيفعل ما يريد فعله. فكما أن له كمال الملك فإن له كمال التصرف في العطاء، وبالتالي ينتفي أن يتصرف أحد في ملكه وخزائنه وعطائه من غير مشيئته وتدبيره. وفي هذا إبطال لكل إرادة من أي مخلوق إلا بموافقته سبحانه وتعالى، والتي منها الأرزاق، فإن التمكين لله وحده لا شريك له، فَيُمَكِّن المخلوق بما رضي به له من العطاء، سواء من حيث الكثرة أو القلة. مما يعني لا تطلب شيئاً إلا من الله تعالى فيما هو حق لله عَزَّ وجل. وأن الأسباب كلها لا تقوم بما يكون منها إلا بتوفيق الله تعالى وإرادته عَزَّ وجل.

وبعد أن أخبر سبحانه وتعالى بأن عنده مفاتيح خزائن السماوات والأرض يزداد التأكيد والبيان لحقيقة توزيع الأرزاق وتقديرها بأنها له وحده، لا شريك له في ملكه وعطائه، فيقول عَزَّ وجل ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يخبر الله تعالى عن حكمته في بسط الرزق وتوسعته لبعض الناس دون بعض، وتقتيره وتقليله لبعض الناس دون بعض ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فإن الله تبارك وتعالى هو الذي يوسع الرزق ويُكثِّره لمن يشاء. فيعطي ويوسع الرزق بما يشاء ولمن يشاء من عباده إلى درجة البسط من الوسع الذي يفيد عظيم رحابة التوسعة إلى حد الإغناء ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ ومن الناس من يكون حاله في الرزق بما قدره الله تعالى من المحدودية، فهو الذي يقلله ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ فهو الذي بحكمته يقدر قلة الرزق، ويضيقه، ويوسعه تارة، ويضيقه تارة، وفق حكمته وعلمه بعباده فرداً فرداً، مما لا يعلمونه من أنفسهم حال توسعة الرزق عليهم، وحال تقديره بالقدر الذي يناسب طبع وحال كل واحد منهم. وهذا من عظيم حكمته، ومن رحمته بالعباد.

فهو يقلله ويقتره على من يشاء، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، أو أمماً، فإن الأمر يخضع لمشيئته سبحانه وتعالى وحكمته، لينتفي بهذا النص الكريم الفهم الخاطئ، من أنه مُرتبط برضا الله تعالى عن مَنْ بُسِط له الرزق، وعن غضبه وسخطه عَزَّ وجل على من قُدِرَ عليه رزقه. فقد يوسع تبارك وتعالى على العاصي والكافر لحكمة أرادها الله تعالى، وقد يقتر ويقلل على المؤمن لحكمة يعلمها العزيز الحكيم، فليس لذلك علاقة بكرامة العبد ومنزلته في الآخرة، فلا يدل البسط على الكرامة، ولا يدل التقتير على الإهانة. وفي هذا ما يدل على أهمية إزالة الفهم الخاطئ في حال التعليم والإرشاد، والدعوة، وغيرها، من أجل إزالة ما يترتب على المفاهيم الخاطئة من الشك أو الريبة، أو التصورات الخاطئة، أو الاعتقاد المنافي للحق والصواب، مما يدل على عناية هذا الدين بالعقل وسلامته فكره، وتفكيره وتحليله واستنتاجه، وتصحيح القياس، والاستنتاج والاستنباط. بل مدرسة في تعليمه وإرشاده وهدايته.

ثم يُخبر جَلَّ جلاله عن كمال علمه، وعن سبب هذا التنوع في البسط والتقدير ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ فإن ربكم هو لا غيره بكل شيء عليم، فيعلم من العباد ما لا يدركونه عن أنفسهم حال توسعة الرزق، وحال تقديره وتضييقه. فيعلم منهم كيف سيكون حال كل واحد منهم على أي حال من البسط أو التقدير، وعلى أي وجه يمكن أن يكون قبل أن يكون، فيعلم منهم كيف سوف يتصرفون فيما لو زاد أو نقص أو قل الرزق بقدر معين من التقدير. فمن لطفه سبحانه وتعالى أن الرزق بيده، ومن حكمته ورحمته أنه يقدره بما يناسب العبد، سواء من حيث صلاحه، أو من حيث فساده، أو من حيث عقابه بتوسعة المال أو تقتيره عليه.

فقد بسط ووسع الله تعالى على قارون الرزق عقاباً له، ومحمد صلى الله عليه وسلم، وهو أحب الناس لربه تبارك وتعالى، يَقِلُّ عنده الرزق لكثرة إنفاقه في سبيل الله تعالى، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (ما شبع آل محمد صلى الله عليه وسلم من طعام ثلاثة أيام حتى قُبِض)[١] وهو سبحانه وتعالى الذي بسط الرزق للخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، حتى أنه جهز جيش العسرة، وهو الذي بسط الرزق للصحابي الجليل عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه، وهناك فقراء أهل الصفة رضي الله تعالى عنهم، وهناك المتوسطين في الرزق من الصحابة رضي الله تعالى عنهم. حتى يبين الله تعالى للناس شأن البسط والتقدير بأنه لحكمة، وليس دليلاً على الرضا، ولا عن السخط، فمن يتأمل شأن الرزق من الله تعالى يجد فيه عظيم الحكمة والرحمة واللطف. فإن وسَّعَهُ تارة وضيقه تارة ليربي العبد على التدبير، ويُعَرِّفَه بأن حصول الرزق عند البسط عليه لم يكن بفهمه وجهده وفكره وحذق تصرفه، فلو كان الأمر كذلك لما ضاق عليه الرزق بعد السعة. وكذلك قد يوسع على عبده لعلمه أنه يبذله في أوجه الخير، أو لحكمة يعلمه الله تعالى ولا يعلمها العباد، وقد يقلله بالقدر المناسب للعبد، لعلمه أنه لو زاد عليه عن المقدار المناسب لطغى وأسرف. فكم من عبد يقول: لو وسَّع الله تعالى عليَّ لعملت فيه من الخير كذا وكذا، وعند التوسعة عليه يجول به في التبذير والطغيان، فالله أعلم بما سيكون من العبد عند التوسعة بالبسط، وعند التقتير والتقليل. فيعامل عباده بحكمته العظيمة ورحمته. مما يلزم العبد الحمد والشكر لله تعالى على كل حال.

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٣/٤٣٠) برقم (٥٣٧٤)

لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ
ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ
مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ﴾

ثم ينتقل توجيه العزيز الحكيم إلى عظيم امتنانه بما شرع لعباده من الدين ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ فمن أعظم ما امتن الله تعالى به على عباده أن ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ فإن ربكم الذي له مقاليد السماوات والأرض، والذي يبسط الرزق بما يشاء لعباده هو الذي أنزل وأوضح وبين لكم دينه المتضمن لشريعته، بما أمركم ونهاكم عنه، وبين لكم الأحكام والأخلاق. فدلالة الدين تجمع جميع ما احتوته الشريعة من التفاصيل. وقد أفاد اسم الإشارة ﴿ لَكُم ﴾ التخصيص، ﴿ شَرَعَ لَكُم ﴾ أي شرع لأمة محمد صلى الله عليه وسلم دينه المتضمن لشريعته، ثم أوضح تبارك وتعالى علاقة هذا الدين بمن قبله، مما أنزله على المرسلين، فقال تعالى ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾ فالذي شرعه لكم يا أمة محمد هو الذي أوصى به أول المرسلين، رسوله نوح عليه الصلاة والسلام، من التوحيد، وأصول الشرائع التي لم يختلف فيها الرُّسُل. ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، وعموم شرائع الدين. فجمع بين أول الرسل نوح عليه الصلاة والسلام، وخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم تلى ذلك بيان أنه صلى الله عليه وسلم مماثل لبقية المرسلين، وذكر منهم ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾ وهؤلاء الخمسة هم أولي العزم: خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، وأول الأنبياء نوح عليه الصلاة والسلام، والمرسلين الذين كانوا بين الرسالتين: إبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. والوصية هي: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ ﴾ أي: أن تؤدوا أصول الدين، وشرائعه بكمالها وتمامها، مع الحرص على أن تكون بأكمل ما يكون من الأداء. فدلالة ﴿ أَقِيمُوا۟ ﴾ تفيد العناية والمواظبة، حتى يكون شأن أصول الدين

وشرائعه قائمة كما أمر الله تعالى بها، من غير تهاون في ذلك. أي: بذل أقصى الجهد في إقامة أصول الدين وشرائعه، بل وسبقها حرف التوكيد ﴿أَنْ﴾ لإظهار الحرص وكمال العناية بأمر الدين كله. ثم نهى سبحانه وتعالى عن الافتراق في الدين ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ أي: ولا تختلفوا في الدين الذي أمركم الله تعالى به، كما اختلف عليه من كان قبلكم من الأحزاب. فاحذروا من التفرق، ولا تختلفوا. وفي هذا النهي عن الاختلاف ما يستوجب التوافق، وعدم التنازع، وذلك بالرجوع إلى الكتاب والسنة، وفق نصوصها، ووفق ما كان عليه الصلاة والسلام وأصحابه رضي الله عنهم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بموقف المشركين من دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ عَظُمَ على المشركين وصَعُبَ على نفوسهم ما تدعونهم إليه من التوحيد، ونبذ الشرك الذي هم عليه. لأن نفوسهم تعودت على الشرك، واستنكافهم وتكبرهم من مطاوعتك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم على ما جئتهم به من الحق الظاهر المبين. وقد أفاد قوله تعالى ﴿كَبُرَ﴾ قوة الكبر، والأنفة، ووصولهم إلى المبالغة في الاستكبار من أن يطاوعوك في الحق. فقد تضخمت نفوسهم بالاستعلاء والكبر.

ثم يطمئن الله تعالى رسوله والمؤمنين، ببيان هدايته، وكمال مشيئته، فيقول تبارك وتعالى ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى يصطفي إليه من يشاء من خلقه، فله المشيئة المطلقة، فإن ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ يختص بهدايته من يشاء من عباده، فإذا أراد هداية عبد أو قوم فإنه يخصهم بالاجتباء لطاعته والامتثال لدينه وأمره ونهيه. وكذلك ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ يهدي ويوفق من عباده الذين آثروا الحق على الباطل، بالإيمان والانقياد لله تعالى بالتوحيد والخلوص من الشرك، عدلاً منه فيهم. فهناك طريقان للهداية: الطريق الأول: أن تأتي الهداية بالاجتباء، من الاصطفاء والاختيار من الله سبحانه وتعالى، بما يبين كمال مشيئته، ورفعة منزلة من اصطفاه جَلَّ في علاه ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ والطريق الثاني: أن تأتي من الإنسان نفسه، بناء على ما زوده سبحانه وتعالى من الإرادة والمشيئة، كما قال تعالى في سورة التكوير ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ فجعل الله تبارك وتعالى بحكمته للإنسان مشيئة من الاختيار، وأوضح لهم طريق الخير وطريق الشر، وهذه المشيئة تحت مشيئة الله تعالى. فيكون الطريق الثاني: بأن يُنيب

الإنسان بالرجوع إلى الله تعالى طواعية للحق الذي تبين له مما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فيختاره ويلزمه، وهنا سوف يتولاه الله تعالى بتوفيقه وعنايته. مما يفيد أن من استمر على كفره، فقد اختار هو لنفسه هذا الكفر، ولم يُنيب إلى الحق الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان الكريم أن الله تعالى لا يرد ولا يمنع من أناب إليه، بل يوفقه ويعينه ويسدده بالهداية والتوفيق. وبالتالي فكل من تواضع للحق وقَبِل به، أعانه اللهُ سبحانه وتعالى على مراده. وأما قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ فإنها توضح كمال مشيئته سبحانه وتعالى، فيختار بحكمته من يشاء، فيجعله يَقبل ويُقبل على دين ربه سبحانه وتعالى. ليتضح كمال مشيئته جَلَّ في علاه، وأنه لا يرد من طلب الحق والصواب. بل وردت الإنابة بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿مَن يُنِيبُ﴾ لإفادة الاستمرار وعدم الانقطاع في قبول من ينيب إلى ربه جَلَّ جلاله ما بقيت الدنيا. إذ لم يقل سبحانه وتعالى: ويهدي إليه من أناب، بل ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ كما تفيد التجدد، والتكرار، فكلما انحرف الإنسان عن طاعة الله تعالى، ثم تاب وعاد إلى ربه سبحانه وتعالى، قَبِلَ الله تعالى توبته. وفي هذا حث وترغيب لكل من ارتكب منكراً أن يعود إلى ربه سبحانه وتعالى، فإنه يقابله بالإعانة والهداية ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ فالهداية والتوفيق متحققة لكل من أناب بالرجوع إلى الله سبحانه وتعالى. وهذا فضل من الله عَزَّ وجل، ورحمة منه بخلقه الرحمن الرحيم.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى تفسير وتحليل تفرق من حاد عن الدين، ولم يقبل دعوة الله تعالى، ومن ذلك دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن ظهر للناس الحق، وبان وأسفر واضحاً جلياً. فقال تعالى ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكّٖ مِّنْهُ مُرِيبٖ﴾ وما تفرق الناس إلا من بعد نزول الدين على المرسلين، بسبب البغي والتعدي الذي أصبح بينهم. فاستوفى البيان الكريم صور التفرق وأحواله ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ﴾ فهو يأتي عاماً، للتحذير مما حصل من الأمم السابقة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ما تفرقوا إلا عن علم بأن الفرقة ضلالة، ففعلوا ذلك التفرق للبغي بينهم، بطلب الرياسة، وشدة الحمية[١] وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: إنما كان مخالفتهم للحق بعد بلوغه إليهم، وقيام الحجة عليهم، وما حملهم على ذلك إلا البغي والعناد والمشاقة[٢] وهو يشمل كذلك حال

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥٣٠/٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١١٨/٤)

المشركين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني قريشاً[١] وكذلك استوعب البيان من رحابة سياقه الأمم السابقة، قال الشوكاني رحمه الله تعالى: وقيل: المراد أمم الأنبياء المتقدمين[٢] فمن بلاغة البيان العظيم أنه استوفى كل اختلاف، سواء كان من الماضي، أو ما كان من المشركين على عهده صلى الله عليه وسلم، وما سيكون مستقبلاً إلى قيام الساعة. وهذا من الإعجاز البياني بأن يستوفي السياق كامل المراد من غير تعارض ولا تضارب. وأفاد كذلك التحذير من الاختلاف، والإفادة بأن الأصل هو التوافق بحصول العلم، وليس التشتت والتفرق، ولكن لما أن للنفوس نزغات، وتشوف، وغايات شيطانية؛ تتعارض مع منهج الله تعالى، فإنه يظهر منها البغي بالمخالفة للعلم الصريح، والحق المبين. مما يُعَلِّم ويحذر من تقديم الهوى على نصوص الشريعة، وتقديم العقل على النقل، وتقديم المألوف على الحكم الشرعي.

كما أفاد ورود البغي ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ أن تفرقهم بسبب البغي والأشر بينهم، وبالتالي ليس بسبب في الدين. ولكن بسبب البغي بينهم، الذي هو التطاول، رغبة في تحقيق حظوظ النفس مما ليس لها، كحب القدمة، والرئاسة، والولاية، والحسد، فيحصل الظلم والفساد والإفساد المخالف لعلم الشريعة. فالدين نعمة، وعموم العلم نعمة، ولكن تشوف النفس يقودها للخروج عن آداب وأخلاق الدين وقواعده إلى البغي. ليفيد الحذر من ذلك.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن سبب وعلة عدم الاستعجال في معاقبة أهل البغي، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي تأخير العقوبة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ إلى وقت الحساب والجزاء يوم القيامة ﴿لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ لَحُكِمَ بينهم بالاستعجال في العذاب على أهل البغي. ولكن لحلمه ورحمته سبحانه وتعالى بالعباد بما قضاه لسابق علمه، لم يستعجل عليهم، حتى يتوب من أراد، ويرجع من أناب لربه، وذلك لرحمته سبحانه وتعالى بالعباد، ويعاقب يوم القيامة من استمر على بغيه.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن أهل الكتاب، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: من اليهود والنصارى الذين في عهده صلى الله عليه وسلم ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ من بعد أسلافهم السابقين ﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ أي: في شك من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم. ذكره ابن الجوزي رحمه الله

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٠/١٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥٣٠/٤)

تعالى[١] وقال القرطبي رحمه الله تعالى: وقيل إن الذين أورثوا الكتاب قريش ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ من بعد اليهود والنصارى، لفي شك من القرآن، أو من محمد[٢] صلى الله عليه وسلم. وقال ابن كثير رحمه الله تعالى: الجيل المتأخر بعد القرن الأول، المكذب للحق ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنۡهُ مُرِيبٍ﴾ أي: ليسوا على يقين من أمرهم، وإنما هم مقلدون لآبائهم وأسلافهم، بلا دليل، ولا برهان، وهم في حيرة من أمرهم، وشك مريب، وشقاق بعيد[٣] وقال السعدي رحمه الله تعالى: اختلف سلفهم بغياً وعناداً، وخلفهم اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم[٤] وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى: ما تفرقت أمم أهل الكتاب في أديانهم إلا من بعد ما جاءهم العلم على لسان رسلهم من النهي عن التفرق في الدين، مع بيانهم لهم مفاسد التفرق وأضراره. فتفرقوا وهم عَالِمِين بمفاسد التفرق، غير معذورين بالجهل. وذكر كذلك: أن مبلغ كفرهم وعنادهم لا يتجاوز حالة الشك في صدق الرسالة المحمدية، أي ليسوا مع ذلك بموقنين بأن الإسلام باطل، ولكنهم ترددوا ثم أقدموا على التكذيب حسداً وعنادا[٥] فحوى البيان الأوجه التي يستوعبها البيان، وكل ذلك حقيقة، لا تعارض في حقيقتها، ولا تضارب بين دلالاتها، إذ شملت جميع ذلك التنوع من التفرق. وهذا من غزارة معطيات الآية الكريمة، التي يظهر بها الإعجاز الدلالي للقرآن الكريم، وأنه كتاب الله العظيم. فقد استغنى البيان الكريم عن تكرار السياق بحسب التنوع.

ثم يوجه تبارك وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إزاء هذا التفرق عليه من المشركين في مكة وغيرها، ومن أهل الكتاب في المدينة بأن يستمر ولا يلتفت لهذا التفرق، وما يريدونه من أعاقة دعوته عن بلوغ أهدافها ومرادها، فقال تعالى ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فاستمر في دعوتك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم كما أمرك ربك تبارك وتعالى، ولا تلتفت لأهوائهم الزائغة. فبدأت الآية الكريمة بالإشارة إلى إظهار السبب ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فلذلك التفرق الذي تُواجهه ﴿فَٱدۡعُ﴾ فاستمر في دعوتك بما أوحينا إليك من الدين

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٧٥)

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/١٠)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/١١٨)

(٤) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/٤١٥)

(٥) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/٤٥_٤٧)

﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ واستقم أنت ومن معك من المؤمنين على الدين، كما أمرك ربك سبحانه وتعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ ولا تراعي ولا تطاوع أهواء المشركين وأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ وقل لهم ولغيرهم أنني قد صَدَّقْتُ بجميع الكتب التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على المرسلين من قبلي ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ ومأمور من ربي سبحانه وتعالى أن أعدل في الحكم بينكم، فاختلافكم لا يدفعني للجور في الأحكام، والقضاء، والتعامل، وفق ما أمرني الله تعالى به.

ثم يقررهم بوحدة الربوبية والعبودية ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى هو إلهنا جميعاً وإن اختلفنا، فإن اختلافنا لا ينفي حقيقة الربوبية أنها له عَزَّ وجل، لا إله ولا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى. بما يفيد أن هذه الحقيقة، سواء اعترفتم بها أو لم تعترفوا، وسواء عبدتم الله وحده لا شريك له كما أمر أو أشركتم، فهو ربنا جميعاً. فشرككم وانحراف المنحرفين عن دين الله تعالى من المنافقين وأهل الكتاب والمشركين لا يزيل الحق والحقيقة، ولا يغيرها. ثم يقررهم بالنتيجة والمحصلة ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ فلنا أجر أعمالنا عند الله تعالى، ولكم أنتم جزاء ما كسبتم من أعمال، فكل نفس سوف تستوفي حقها من الجزاء. بما يفيد عليكم بالتأمل فيما سيكون لكم من الجزاء إن لم تؤمنوا وتصدقوا، فعودوا إلى رشدكم. فهو الأسلوب الذي يستدعي التأمل والتفكر، وهو أسلوب المتاركة، بأن يترك لهم التأمل، ويترك لهم الاختيار بعد التفكر، ولا يفرض عليهم ما هم عليه من الدين. ولكن تأملوا العاقبة. وبما يفيد براءتنا مما أنتم عليه من الجحود والكفر.

ثم تتكرر المتاركة ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ قال مجاهد رحمه الله تعالى: لا خصومة بيننا وبينكم[(١)] ولما أن الحجة تعني الدليل والبرهان فإنها تعني كذلك اثبات كفرهم بحجج الله تعالى، وكذلك كفر الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بحجتهم في شركهم، بأنه تقليد للآباء عن جهل وليس عن دليل وحجة، وبالتالي فليس هناك اتفاق بيننا، وكذلك ليس هناك ما يُوجب العداوة، لأن الدين اختيار لكم، والمحصلة لكم إن آمنتم، والعذاب لكم إن بقيتم على كفركم. بما يفيد أن هذا ما نحن عليه من المسالمة، فإن بدر منكم معاداتنا، وما يوجب علينا معاداتكم ومقاتلتكم فإننا فاعلون، ففي ذلك تقديم السلم على الحرب. ولذلك لم يحارب صلى الله عليه وسلم ابتداء، بل حارب المشركين في أول معركة بعد أن تجمعوا عليه في بدر. وحارب اليهود وأجلاهم من المدينة بعد أن خانوا العهود، وحاولوا قتله صلى الله عليه وسلم، وتواطؤوا مع الأحزاب.

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٧٦)

ثم ينتقل البيان الكريم إلى أن هناك فصل من الله تعالى سيكون بيننا وبينكم أيها المكذبون ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى سيجمع بيننا يوم القيامة للفصل فيما اختلفتم معنا فيه. فإنها الحقيقة التي تثير التخويف من الكفر والظلم والجور، وعموم المعاصي، وأهمية لزوم التعقل، والانتباه، والرجوع إلى التعقل. ثم أورد البيان الكريم تأكيداً لذلك الجمع بقوله عَزَّ وجل ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فإليه مرجعنا جميعاً يوم القيامة، للحساب والجزاء. وفي هذا البيان مدعاة لهم للتأمل والتفكر في العاقبة. وهو أسلوب بمنهجية العودة للحقائق، واغتنام فرصة الحياة.

وقد شملت هذه الآية الكريمة عشرة قواعد في منهج التعامل، **القاعدة الأولى:** ﴿فَٱدۡعُ﴾ القيام بما كلف الله تعالى به الرسول صلى الله عليه وسلم، والاستمرار فيه بما أوحى اللهُ تعالى إليه به. مما يعطي قاعدة الاستمرار في الخير، وأداء الحق، وطاعة الله تعالى، وألا يتوقف الإنسان بناء على المعارضين. **والقاعدة الثانية:** الاستقامة، بلزوم المنهج الصحيح ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ واستقم أنت ومن معك من المؤمنين كما أمرك ربك سبحانه وتعالى. مما يفيد: الاستقامة وعدم التعدي على الغير، ولزوم تلافي عداوة العدو، ولزوم السلم، ولزوم العمل والأداء، وألا ينشغل المؤمن عن مراده بغيره من المثبطين، فيستثمر جهده ووقته لتحقيق أهدافه ومراده. **والقاعدة الثالثة:** ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ ولا تراعي ولا تطاوع أهواء المشركين وأهل الكتاب. فعلى المؤمن ألا يجامل غيره في الحق، من أجل المسامحة وكسب وداد غيره بالباطل، لأن أهل الباطل لن يرضيهم شيء حتى يبلغ غيرهم المماثلة لهم. فإنهم سيطلبون المزيد، ولن يكتفوا بشيء من المتابعة لهم، فهو أمر قطعي، وأمر جازم وحاسم بعدم مجاملة أهل الأهواء.

والقاعدة الرابعة: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ وقل لهم ولغيرهم أنني قد صَدَّقْتُ بجميع الكتب التي أنزلها الله سبحانه وتعالى على المرسلين من قبلي. بما يفيد إعلان المبادئ، وبما يفيد أيضاً تزهيدهم في أن ينالوا شيئاً من التنازلات. حتى لا يجعلوها مكاناً للمساومات. **والقاعدة الخامسة:** إقامة العدل في التعامل، وإظهار ميزة الدين في عدم الظلم، وذلك بإقامة العدل والإنصاف ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُ﴾ ومأمور من ربي سبحانه وتعالى أن أعدل في الحكم بينكم حال اختلافكم، فاختلافكم لا يدفعني للجور في الأحكام، والقضاء، والتعامل، وهذا وفق ما أمرني الله تعالى به. فإظهار مميزات الأهداف والمنهج فيما يخص الخصوم مدعاة لهم للتفكر، والأمن لهم إن لزموا السلم والمسالمة. **والقاعدة السادسة:** إعلان التساوي في أصل الربوبية ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ فإن ربنا جميعاً واحد، وبالتالي فإلهنا واحد وهو الله تعالى وإن اختلفنا، لا

إله إلا هو، ولا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى. بما يفيد أن هذه الحقيقة، سواء اعترفتم بها أو لم تعترفوا، وسواء عبدتم الله وحده لا شريك له كما أمر، أو أشركتم معه غيره، فهو ربنا جميعاً. فشركم لا يزيل الحق والحقيقة، ولا يغيرها. بما يفيد أهمية التأمل والتفكر، والحذر من عقوبته.

والقاعدة السابعة: تقريرهم بالنتيجة والمحصلة ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ فلنا أجر أعمالنا عند الله تعالى، ولكم أنتم جزاء ما كسبتم من أعمال، فكل نفس سوف تستوفي حقها من الجزاء. كما جاء في سورة الكافرون ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾ لكم دينكم وجزاؤه، ولي ديني وثوابه، بما يفيد المتاركة، وإعادة الْمُخَاطَب إلى النتيجة والمحصلة، وأن القضية والأمر ليس هو قائم على التحدي، بل قائم على لزوم الحق. وبما يفيد أن عليكم بالتأمل فيما سيكون لكم من الجزاء إن لم تؤمنوا وتُصَدِّقُوا، فعودوا إلى رشدكم. فهو الأسلوب الذي يستدعي التأمل، وهو منهج المتاركة، بأن يترك لهم التأمل، ويترك لهم الاختيار بعد التفكر، ولا نفرض عليكم ما نحن عليه من الدين. ولكن تأملوا العاقبة، فهي خير دافع للحق. وبما يفيد براءتنا مما أنتم عليه من الجحود والكفر.

والقاعدة الثامنة: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾ أي: لا شيء يستوجب الخصومة بيننا وبينكم، فإن الأمر والشأن قائم على الأصل فيما بيننا، وهو السلام والمسالمة، بما يفيد المتاركة بيننا في الاختيار، فلكم دينكم، ولنا ديننا. وبالتالي فليس هناك اتفاق بيننا، وليس هناك ما يُوجب العداوة، لأن الذي اخترناه لنا عاقبته ومحصلته، وأنتم لكم محصلة الذي اخترتموه، بما يفيد أن هذا ما نحن عليه، وهذا ما أنتم عليه. فإن بدر منكم معاداتنا، فإننا لمعاداتكم فاعلون، ففي ذلك تقديم المسالمة على المناكفة. **والقاعدة التاسعة:** التنويه إلى عدل الله تعالى في القضاء بيننا يوم القيامة إن جار أحدنا على الآخر ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ فإن الله سبحانه وتعالى سيجمع بيننا يوم القيامة للفصل فيما اختلفنا فيه. فإنها الحقيقة التي تثير الخوف من الكفر والظلم والجور، وعموم المعاصي، وأهمية لزوم التعقل، والانتباه، والرجوع إلى التعقل. **والقاعدة العاشرة:** تأكيد المصير النهائي. ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ فمصيرنا النهائي جميعاً لله ربنا وربكم، الذي مثلته القاعدة السادسة ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ﴾ فإليه مرجعنا جميعاً يوم القيامة، للحساب والجزاء. وفي هذا مزيد من ختام الخطاب لهم بوجوب إقامة الحق، والذي جاء بتدرج منهجي غاية المحاجة العادلة. التي تُبين وتُظهر عدل الإسلام، وأنه قائم على المنهج العلمي المنير، والحجج الباهرة بجميع أنواعها. وأنه دين السلم والسلام مع من سالم، والعدل والإنصاف، مع الأخذ بزمام القوة لمن تعدى.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى قضية الذين يحاجون بالباطل، لِيُبْطِل ويدحض حجتهم بحكم الله تعالى عليهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ والذين يحاجون ويجادلون بالباطل في دين الله تعالى، وما نزل من القرآن العظيم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ من بعد ما استجاب الناس للرسول صلى الله عليه وسلم ولهذا الدين العظيم، بقبول الدين الذي أنزل عليه، فقد أصبحت ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ فمجادلتهم بما قالوا مما يروجون له، ويرون أنها حجج فإنها داحضة مدفوعة بالرد لها ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ فالحكم عليها من ربهم سبحانه وتعالى قد أدحضها وأبطلها، بما يثبت لهم أنهم في وهم من الحجج الفاسدة، ووجب عليهم أن يستبصروا الحق، ويعملوا به، وأن لا يجعلوا عقولهم تتعلق بما اخترعوه من الأباطيل. وأن واجبهم الانصياع للحق من ربهم من بعد ما استجاب المنيبون لربهم سبحانه وتعالى، فَقَبِلُوا بالدين. الأمر الذي يشهد بأنه حق، فيأتي هؤلاء المجادلون من بعد ما تبين وظهر الدين. فإن حجتهم داحضة من كل وجه، فليس فيها ما يرتقي بها لتكون حجة مقبولة البتة.

بل وزاد من التشنيع عليهم قوله سبحانه وتعالى عنهم ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ فمن شناعة ما كان منهم أن أغضبوا ربهم عليهم ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ﴾ فعليهم غضب الله تعالى وسخطه، لإعراضهم وتمردهم، ومعاندتهم للحق الظاهر المبين من ربهم سبحانه وتعالى. ويتبع ذلك الغضب من الله عَزَّ وجل ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ فلهم عذاب قد اتصف بالشدة والغلظة التي لا تنفك عنهم أبداً. فهو عذاب شديد في قوته أثره عليهم، جزاء بما كان منهم. مما يدل على خطورة ما هم عليه، وأنه يستدعي منهم التوبة والرجوع إلى الله تعالى. وهذا البيان هو من فضل الله تعالى ورحمته بالعباد، إذ يكشف لهم ما يستدعيهم للتوبة، وطاعة ربهم وخالقهم سبحانه وتعالى، والاستجابة لرسوله صلى الله عليه وسلم، إذ حذرهم من جزاء ما هم عليه، من مجادلتهم الحق ومحاربته بالباطل.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا
ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ
فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩
مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ

فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا
كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ
مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي
رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ
ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ
نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ
وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ ﴾

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى فيما سبق: من أن دينه وما تضمنه من الحجج والبراهين قد استجاب لها العقلاء، يتدرج البيان الكريم إلى تأكيد شيئاً من مميزات وخصائص كتابه القرآن العظيم، وتجهيل علم الناس بالساعة، فقد تكون قريبة والناس عنها لا يعلمون. فقال تبارك وتعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴾ فإن الله تعالى هو الذي أنزل هذا القرآن ﴿ بِٱلۡحَقِّ ﴾ الذي يفيد دلالة الصدق واليقين، لما فيه من الآيات الواضحات البينات، والأدلة القاطعة الباهرة، والأحكام والتشريع المعجز الذي لا يمكن أن يكون إلا من عنده سبحانه وتعالى، وكذلك أنزله بالعدل الذي هو ﴿ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ وفي وصفه بالميزان ما يجزم به أن كل ما فيه من التشريع قائم على الإنصاف والعدل، الذي انتفى منه الظلم والجور، حتى أنه لم يكلف الإنسان إلا بما يسعه وسعه.

وقد جمع البيان بين كمال الوصف وبين حصر الإنزال للقرآن بأنه منه وحده لا شريك له ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ لا غيره سبحانه وتعالى، وقد بدأ البيان باسم الجلالة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ لإفادة التعظيم للقرآن، وتعظيم من أنزله سبحانه وتعالى، وأثبت وصوله بطريقة الإنزال ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ بما يفيد أن إنزاله من المقام العالي لكم أيها الناس، ليفيد شرف القرآن العظيم، وبأنه من لدن ربكم المتفضل عليك به. وجاء لفظ الكتاب مفرداً ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ ليفيد جنس الكتاب. بحيث إذا أفرد الكتاب فلا دلالة له إلا على القرآن الكريم. تعظيماً له وإجلالا.

كما يفيد قوله عَزَّ وجل ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾ أن من تمسك بالقرآن منهجاً وتطبيقاً فقد حقق به الحق والعدل، في جميع شؤونه التي هو فيها، وسواء كان حاكماً أو محكوماً، أو قاضياً، أو مطالباً بحق، أو مطلوباً بحق، وسواء كان الحق لله تعالى، أو لعباده. ومما يفيد ويبين أنه بالقرآن يحصل العدل في البيت، وفي المهنة، وفي المعاملات مع المجتمع، وفي كل صغيرة وكبيرة. فإن دلالة الآية الكريمة دلالة عظيمة، ووافية لما في القرآن الكريم من الخير.

ثم بعد هذا البيان يقرر سبحانه وتعالى ما كان فيه أهل الباطل من الجدال في شأن الساعة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴾ سؤال لكل الْمُخَاطَبين، فلا شيء يدريك بموعد الساعة، فليس هناك ما يجعلك عارفاً ودارياً بها. فهو نفي قطعي ﴿ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴾ فقد يكون موعد الساعة قريب وأنتم لا تعلمون عنها. فقد يكون حدوثها في وقت وزمن قريب. بما يفيد أنه لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، حيث استأثر عَزَّ وجل بعلمها، وكذلك لإفادة التهويل والتعظيم لشأنها، وتحذير الناس من وقوعها، وأن عليهم أن ينشغلوا بما ينفعهم في الآخرة، قبل وقوع الساعة، فحين وقوعها لا ينفع الإيمان بها من أهل الكذب والإنكار لها قبل ذلك، ومن اللاهين عنها وعن الإيمان بها. ولا يمكنهم استدراك ما فاتهم من الإيمان والطاعة. فيكون بقيامها قد قُضي الأمر. ومن فوائد السياق أن دلالة ﴿ لَعَلَّ ﴾ مع ما بعدها من البيان أفادت الاستفهام، الذي يفيد تجهيل كل من يسأل عن الساعة، أو يريد أن يعلم موعدها، إلى درجة أنها قد تكون قريبة، ومع قربها لا تعلمونها، بما يفيد استحالة العلم بموعدها.

ثم يبين تبارك وتعالى الفريق الذي يستعجل معرفتها، واختلاف حالهم عن حال أهل الإيمان في شأن الساعة، فيقول عَزَّ وجل ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٍ ﴾ فهناك حالتان: هما حالة الاستعجال على معرفة الساعة، وحالة الإشفاق حيال شأن الساعة، فهما حالتان متناقضان: أي: حال المصدقين بها، وحال المكذبين بالساعة. فحال الفريق المنكر لها هو ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا ﴾ فهو استعجال من باب التكذيب. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: استعجال استهزاء منهم بها، وتكذيباً بمجيئها[1] بينما حال الفريق المؤمن بها هو ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ ﴾ وحال المؤمنين من الساعة هو حال الخائف الوجل من مجيئها ﴿ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا ﴾ والإشفاق هو خوف وقوع ما تخافه

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥٣٢/٤)

النفس، فهم مشفقون من أهوالها، خوفاً على أنفسهم. نتيجة إيمانهم وتصديقهم بها، وما سيكون من حال الحساب والجزاء، وهم مُوقنون بمجيئها ﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ فيعلمون أن مجيئها حق لا ريب ولا شك فيه. وذلك لإيمانهم ويقينهم بوقوعها. مما يبين أن للإيمان أثر عظيم في السلوك والتصرفات، فهو ضابط لها من أن تتصرف في الحياة على غير منهج الله تعالى، مما يساعد المسلم على ضبط نفسه عن الشهوات والأهواء، فيندفع إلى طاعة الله تعالى، وإلى مكارم الأخلاق، بينما المكذب بها يتصرف وفق شهواته، فيندفع إليها اندفاع الذي لا يبالي بنتيجة ذلك. فيكون حاله الإفساد في الأرض. مما يبين فضل الدين على الفرد، وعلى الأسرة، وعلى المجتمع. فهو نعمة عظيمة، ومنحة كريمة من الله تعالى، مما يستوجب من العباد شكر الله تعالى عليها بالانقياد والطاعة لدينه العظيم.

ثم يخبر الله تعالى عن شأن المكذبين بالساعة، فيقول عَزَّ وجل ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ إن الذين ينكرون ويجادلون في شأن الساعة ﴿ لَفِى ضَلَـٰلٍ بَعِيدٍ ﴾ أي: في مسلك وطريق عميق في اتجاهه الْمُضَاد للحق. فقد سلكوا غير طريق الحق والرشاد، فقد سلكوا مسلك الباطل، وأوغلوا في هذا الباطل عن الصواب المحقق للهدى، وابتعدوا بُعْداً متناهياً، مما يفيد أنهم قد أهلكوا أنفسهم، وحققوا لها خسران الدنيا والآخرة، وفَوَّتوا عليها سعادة الدنيا والآخرة، بتركهم سبيل الحق، وسلوكهم سبيل الضلال، لأن الضلال: هو العدول عن الحق بعد معرفته. وفي لفظة ﴿بَعِيدٍ ﴾ ما يدل على المبالغة المتناهية في النأي عن الحق، فإنهم قد بَعُدوا بهذا الضلال بعداً متناهياً عن الهدى، فإنه ليس بعداً هيناً، وفي هذا تعظيم لأمر الشرك، بأنه يبعد بصاحبه هذا البعد المتناهي.

وقد بدأ مطلع البيان بحرف التنبيه ﴿أَلَآ ﴾ فأفاد هذا الاستهلال التنبيه والتوبيخ بما بعده من البيان، مع الإنكار والعتاب عليهم، والتنديم على ما هم فيه من الإنكار والاستهزاء بيوم الساعة. ثم ورد بعده حرف تأكيد ضلالهم ﴿إِنَّ ﴾ الذي يؤكد ما بعده من بيان، بأنهم في ضلال قد أوغل في الباطل، بما أبعدهم عن الحق. فشمل البيان الكريم دقة الوصف لهم، ولحالهم، ولِمَا يترتب عليه. وأن ذلك المسلك قد أبعدهم بعداً عميقاً عن الحق، فصاروا في الطرف النقيض لدين الله تعالى، ولمراده عَزَّ وجل. بما يفيد تنبيههم على حالهم، وما هم فيه من الضلال، وبما يستوجب منهم بهذا البيان من ربهم أن يعودوا لرشدهم، وإلى الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وبعد بيان الله تعالى لحال المنكرين المستعجلين للساعة، ولحال المؤمنين بها، يستدعي الجميع إلى لطفه ورحمته، فيبين سبحانه وتعالى كريم عطائه لعباده، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن

يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ يقرر الله جَلَّ جلاله لجميع عباده أنه لطيف بهم، بما يستوجب منهم طاعته عَزَّ وجل، والانقياد لدينه العظيم، فإن ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ فإن من عظيم صفات الله تعالى أنه ﴿لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ فهو عَزَّ وجل رحيم بهم، إذ أفاض عليهم بما هم فيه من الإنعام والأرزاق، والصحة، وإرسال الرسل بالدين الحنيف، والتشريع الذي يضبط علاقاتهم بربهم، وعلاقتهم فيما بينهم، سواء في الأسرة، أو في المهنة، وفي جميع ملتقيات المجتمع، بل ويوجب عليهم التكاتف بالنفقة والبر والصدقة والزكاة، وترتيب الأجر حتى على الكلمة الطيبة، ووعدهم بالجنة في آخرتهم، لمن أطاع ربه سبحانه وتعالى، وحذرهم من المعصية وما يترتب عليها من العذاب، وكل ذلك رحمة منه عَزَّ وجل بالعباد.

وقد استوعب قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ جميع الخير والإنعام، بل وأوجبت على العباد محبة ربهم على لطفه وعنايته بهم، وأوجب لطفه تبارك وتعالى طاعته، والانقياد لأمره، وإنفاذ شرعه، والامتناع عما نهى عنه وزجر سبحانه وتعالى. بل إنه مهما فعل العبد من الطاعة لا يستطيع أن يُوفي بحقوق الله تعالى.

ثم نوه بعد ذلك سبحانه وتعالى عن حكمته العظيمة في توزيع الأرزاق. فقال تعالى ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ فرزق ربكم لكم وفق مشيئته، التي تُبيّن عظيم حكمته في العطاء، من البسط، ومن التقدير للعبد، لِمَا يعلمه عن عباده أكثر وأعمق مما يعرفونه عن أنفسهم. وبما يستدعي أن تتوجهوا إليه بطلب الرزق، وأن تعبدوا وتطيعوا من بيده الرزق. وبالتالي كيف لا تطيعون من بيده رزقكم؟ فتنكرون ما جاءكم به الرسول من الحق صلى الله عليه وسلم.

ثم بعد هذا البيان المشتمل على دفع النفوس للطاعة يحذر العباد من المعصية، وذلك ببيان عظيم صفاته من القوة والعزة ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ فإن من صفات ربكم أيها العباد أنه هو لا غيره ﴿ ٱلۡقَوِيُّ ﴾ فإن الله تعالى قوي في بطشه، إذا بطش، كما حل بالأمم المكذبة، كقوم عاد وثمود وفرعون وهامان وقارون وغيرهم. وهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ﴾ سبحانه وتعالى، فلا غالب له، ولا غالب غيره، ولا قاهر بعده، بل هو الغالب والقاهر، وهو المتفرد بالعزة التي ليس فوقها عزة، سبحانه وتعالى. فإنه الغالب والقاهر فوق عباده، وصاحب السلطان على جميع الأشياء، فليس مثله شيء في القوة والعزة والانتقام والقهر. فاحذروه جَلَّ في علاه.

وقد جمع قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ جمع بين اللطف وبين القوة والعزة. وفي الجمع بين اللطف وبين القوة والعزة ما يفيد بأن الله تعالى لطيف بعباده عن قوة وعزة وقهر واستعلاء، فلا حاجة له عَزَّ وجل فيهم، فهو الغني، وهو المغني، وهم الضعفاء والفقراء إلى ربهم

تبارك وتعالى في كل شيء، ولا حول ولا قوة لهم إلا بربهم سبحانه وتعالى. كما أفادت الجمع بين ترغيب العباد في لطفه سبحانه وتعالى، وبين التخويف من قوته وعزته، حتى يكون هناك توازن في نفوس الْمُخَاطَبين.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن سنته في العطاء والتدبير، فقال تبارك وتعالى ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ من كان يريد من اجتهاده وعمله في الدنيا ثواب الآخرة فنعينه ونوفقه ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ نعينه بالتوفيق والزيادة، بمضاعفة الثواب له. والحرث هو: العمل والكسب، بما يعني: أن من كان إقباله على الدنيا من أجل ثواب الآخرة، إخلاصاً لله تعالى وطاعة له ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ نزيد له فيما اجتهد فيه من الحرث لكسب الخير. فإن ربكم يعينه ويسدده على مراده ومقصده، بمضاعفة حسناته إلى عشرة أضعاف وإلى سبعمائة ضعف، وإلى أكثر من ذلك، كما ورد في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم (كل حسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة)[1] وهذا من كرم الله تعالى، ومما يحفز المؤمن نحو الخير، والإخلاص لله تعالى، بأن يبتغي بأعماله الصالحة الآخرة.

وأما من كان مقصده مخالف لمقصد المؤمن، فهو لا يبتغي من الآخرة ثوابها، فيقول تبارك وتعالى عنه ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا ﴾ ومن طلب مقاصد الدنيا، وما فيها، وهي غاية مراده ومطلبه، فلا رجاء له في ثواب الآخرة، فإننا ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾ نعطيه من الدنيا ما قدرناه له فيها ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ وأما الآخرة فليس له فيها أي ثواب من خيراتها ونعيمها، لأنها خاصة بالمؤمنين. أي: فليس له في الآخرة إلا ما يستحق من العذاب. بما يفيد أن الدنيا هي مزرعة الآخرة للمؤمن، فبقدر ما يعمل العبد يجد ثمرة حرثه من الكسب والعمل، وبقدر ما يفسد العبد في الدنيا يجد ما يماثله من العقاب. فانتبهوا أيها العباد لأنفسكم. فقد أفاد ذلك التعليم، والترغيب في الآخرة، والتحذير من الكفر والفساد.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى زجر وتوبيخ المشركين على ما اتخذوا من المعبودات من دون الله سبحانه وتعالى، فقال عزَّ وجل ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ تناولت الآية الكريمة شأن إصرار المشركين على شركهم بأسلوب السؤال التقريري والتوبيخي لهم في نفس الوقت. فبدأت الآية الكريمة

(١) البخاري، الجامع الصحيح (٤١) والنسائي (٤٩٩٨) الألباني، صحيح الجامع (٣٣٧)

بسؤال انتقالي من الكلام فيما سبق عمن يريد حرث الآخرة، ومن يريد حرث الدنيا، وما سبق من لطفه جَلَّ شأنه بعباده، وما كان من تفرق أهل الشرائع من بعد ما جاءهم العلم إلى تقرير وكشف ما هم عليه من الشرك وإصرارهم عليه. واستهل مطلعها بقوله عَزَّ وجل ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ﴾ والهمزة للاستفهام المتضمن للتقريع والتهكم، وتقرير ما هم عليه من الشرك، ومن غورهم في الضلال، وبُعدهم عن الحق، قال القرطبي رحمه الله تعالى: أي: ألهم! والهمزة للتقريع[1] فهل لهؤلاء المشركين آلهة ﴿ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم ﴾ سَنُّوا وابتدعوا لهم ﴿ مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فشرعوا لهم ما لم يجزه ويبحه الله تعالى. فهو سؤال يقرر ما هم عليه من الضلال، ويوبخهم على توغلهم في الضلال الواضح من أنهم شرعوا لأنفسهم ما لم يأذن به الله عَزَّ وجل، لأن معبوداتهم لا تستطيع أن تُشَرِّع لهم شيئاً، فإذاً مصدر التشريع هو اختراع من عند أنفسهم، ولم يأذن به ربهم وخالقهم تبارك وتعالى. بما يكشف لهم فظاعة ما هم عليه من الشرك، مع نفي أن يكون في ذلك شيء من عند الله تعالى. مما يُجَلِّي باطلهم، وأنه لا مصدر لهم غير اختراعهم الباطل. بما يثبت أن الشرك لا مستند له من كل وجه. مما يبين أن منهج الله تعالى قائم على تحرير الباطل تحريراً في غاية الإقناع وكماله، فإنه لا يُبطِلُ شيئاً إلا ويُجَلِّيه تجلية واضحة، ومقنعة لأهله. مما يُعَلِّم المؤمنين كيف يوضحون ويجلون الحقائق، وكيف يُقِيمُون الحجج الصحيحة على الباطل، وكيف يتدرجون فيها، لهدف إقامة الحق. مما يفيد أن من أراد معرفة منهج إقامة الحجج على الباطل فعليه بمنهج القرآن الكريم.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن سبب وعلة عدم مسارعته في إهلاكهم على فظاعة جرمهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ ﴾ وهو ما قضى به تبارك وتعالى من الإمهال، لحلمه سبحانه وتعالى ﴿ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ لحكم بينهم وبين المؤمنين بالقضاء على هؤلاء المشركين المعاندين للحق بالعذاب المهلك لهم، والقاضي عليهم في الدنيا. ثم يقرر سبحانه وتعالى ما للظالمين من استحقاق للعذاب، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإن الظالمين بشركهم مع ربهم غيره ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فإن لهم يوم القيامة عذاب موجع وشديد في ألمه من قوته وشدته. فلا يظنون أنهم بمفازة ونجاة من العذاب، أو أنهم على حق. وإنما لكلمة الفصل التي قضاها سبحانه وتعالى بالتأجيل والتأخير هي لطف منه عَزَّ وجل، لعلهم يرجعون عن باطلهم. وفي هذا إعلام وإظهار للحق، وإعلام بسبب وعلة عدم المعاجلة لهم بالعذاب والهلاك في الدنيا. مع إفادة التهديد والوعيد للمشركين. مما يبين لكل عاصٍ أن إمهال الله تعالى له هو نعمة وتفضل، لعله يتوب،

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القران (١٦/١٤)

ويرجع عن باطله إلى الحق، فهي فرصة إمهال. فليحذر كل أحد من التمادي في الباطل، فإن عذاب الله تعالى شديد أليم.

ثم تزداد الموعظة بياناً من الله تعالى عن أحوال الظالمين والمؤمنين في الآخرة، بما يحذر الظالمين من ظلمهم، ويحفزهم للطاعة والامتثال، ويُثَبِّت الذين آمنوا على الطاعة لربهم جَلَّ في علاه، فيقول عَزَّ وجل ﴿ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فيتوجه الخطاب من الله تعالى لكل أحد ﴿ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ فيا أيها الإنسان: إنك سترى الظالمين الذين هم أهل الشرك والكفر عموماً ﴿ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ خائفين وجلين مما كسبوا وحَصَّلُوا من تبعات فسادهم حين يأتي يوم القيامة ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ أي: صائرين إلى العذاب، وهم مُوقِنُون تماماً أن العذاب واقع بهم، لا حياد لهم عنه، وهذا المشهد هو يوم القيامة. وقد أفادت دلالة ﴿ مُشْفِقِينَ ﴾ قوة الخوف والوجل مما أيقنوا من أن العذاب حاصل بهم، وهذا العذاب هو الذي يطلبهم بوقوعه عليهم، بسبب ﴿ مِمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ أي: مما عملوا وجَنَوا.

ومن دقائق البيان الكريم أن أُلصق الكسب بهم ﴿ مِمَّا كَسَبُوا۟ ﴾ فإنهم هم الذين عملوا وكسبوا تلك الأعمال من الظلم الذي أودعهم ذلك العذاب، ولم يكن جناية عليهم من غيرهم. كما جعل السياق الكريم أن فعل العذاب هو الواقع بهم ﴿ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ وليس هم الواقعون في العذاب، لإفادة أن العذاب هو الطالب لهم، وهو الأقوى والأظهر في قوته بتسلطه عليهم، لإظهار ضعفهم، وبيان قوة وشدة وهول العذاب، ونكاية بهم، جزاء لعنادهم واستكبارهم وتطاولهم على الحق، فقد كان الخيار لهم في الدنيا، وأصبحوا اليوم منقادين للعذاب الذي يطلبهم.

ثم يقارن سبحانه وتعالى حالهم بحال أهل الإيمان، وما أعده الله تعالى للمؤمنين من النعيم المقيم، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فالذين اتصفوا بصفة الإسلام، فجمعوا بين الإيمان وعمل الصالحات، فإن لهم عند ربهم ثواباً عظيماً. وهما صفتان عظيمتان: الصفة الأولى: الإيمان ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ وهم المصدقون بالله تعالى وبكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبكافة ما جاء عن الله تعالى. فالإيمان هو الأساس والقاعدة الأولى،

لما تضمنه من الإقرار بالله تعالى رباً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً، وكذلك الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر. ثم يتعاضد الإيمان مع الصفة الثانية: التي هي: عمل الصالحات. فجمعوا مع الإيمان العمل بالصالحات، كما قال تعالى ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ التي هي الطاعة لله تعالى بما أمر. وهي: الأعمال التي أمر الله تعالى بها، من العبادات وغيرها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات، لتستوفي صفة الصلاح جميع شرعه، وما فيه من الأوامر والنواهي. وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل من كل وجه، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع، في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها.

فهؤلاء الذين هم المؤمنون ﴿ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ﴾ وهي جمع روضة التي هي البساتين المملوءة بالزروع والأشجار، والأنهار التي حوتها الجنة. ومن دقائق البيان أنها وردت بصيغة الجمع ﴿ ٱلْجَنَّاتِ ﴾ لإفادة الكثرة والتنوع الذي يسعد به أهل الإيمان، فلا يَمَلُّون لتعددها وكثرتها وتنوعها. وأيضاً مع تلك السعادة، هناك سعادة أخرى، وهي: أن ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ ﴾ ما تشتهيه أنفسهم وتستطيبه أعينهم. فلهم كل ما يشاؤون من النعيم المقيم، بما يدل على سعة العطاء من غير تحديد له. ليفيد الإطلاق في النعيم الذي لا حدود له. بل من رفعة مقامهم أن أسند سبحانه وتعالى الأمر والمكان إليه عَزَّ وجل ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فمجد الله تعالى مكانتهم بأن لهم ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وهذا غاية التكريم، فإنه تكريم عظيم منه سبحانه وتعالى، بأن جعل منزلتهم في ضيافته عَزَّ وجل ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فأنعِم به من تكريم وفضل ومنزلة وسعادة ليس بعدها سعادة.

ثم يخبر عَزَّ وجل عن قيمة ومنزلة هذا الميراث من الجنة ﴿ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فذلك الجزاء المذكور آنفاً، وهو ﴿ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ هو العطاء والتفضل العظيم. فاسم الإشارة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ للتفخيم والتعظيم، ويعني به: فذلك العطاء من النعيم والسعادة التي لا تنقطع، من الجنان والبساتين المتنوعة، التي تجري من تحتها الأنهار، وما تشتهيه وتطلبه الأنفس، وتلذ الأعين، والمنزلة العظيمة عند ربهم، فهذا ﴿ هُوَ ٱلْفَضْلُ ﴾ وقد أكد عَزَّ وجل منزلة هذا الفضل بزيادة التعظيم له، فوصفه بأنه ﴿ ٱلْكَبِيرُ ﴾ أي: العظيم في نوعه وشرفه ومنزلته، وما يتحقق لهم به من السعادة التي لا تنقطع.

فهذا الفضل الكبير قد تحقق لهم جميعاً، مع اختلاف مراتبهم، فهو كبير لكل أحد من أهل الجنة، مهما كان مقدار التفاضل. فهو فضل لا تدركه عقول الناس في الدنيا من عظمته.

ثم يخبر الله تعالى عن ذلك الفضل الكبير بأنه البشارة في الدنيا للمؤمنين، والتي ليس هناك أعظم منها على الإطلاق، فقال عزَّ وجل ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فذلك الفضل الكبير والثواب العظيم هو بشارة من الله تعالى لعباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات. فبدأ البيان باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ والذي يعود على ما سبق ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ فيؤكد به ما سبق، وأفاد التفخيم والتبجيل لذلك الفضل، ولما بعده من البشارة ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ والبشارة هي الإخبار بما يسر، وتفرح به النفس، وتتشوف وتتشوق له. فكيف إذا كان المبشر بها هو الله سبحانه وتعالى، فإنها تعظم بقدر عظمة المبشر بها. فالبشارة من الله تعالى وعد متحقق بجميل الخاتمة من الدنيا، وبجميل ما يلقاه أهل الفضل في الآخرة، فهي بشارة تحمل رسالة التطمين والطمأنينة للذين آمنوا وعملوا الصالحات. وهي أعظم وأكبر بشارة على الإطلاق، فليس هناك أعظم منها بشارة.

ثم يتكرر الوصف للمستحقين هذه البشارة، بأنهم ﴿عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهم المصدقون بالله تعالى وبكتبه ورسله، وباليوم الآخر، وبكافة ما جاء عن الله تعالى. وجمعوا مع هذا الإيمان الأعمال التي أمر الله تعالى بها، لأن جميع ما أمر الله تعالى به هو من الصالحات. وفي هذا مقارنة مع حال الكافرين الذين استوفاهم الله تعالى ببيان ما يستحقون من العذاب، ليفيد المقارنة الدافعة للتأمل بين الحالين، مما يستوجب على الإنسان أن يختار النعيم المقيم، ولا يركن للزائل من الشهوات والشبهات، وحب الاستعلاء بترك الخير والركون إلى الباطل. وبهذا قامت الحجة على الإنسان، وكل نفس بما كسبت رهينة، كما أن في ذلك بيان لعظيم رحمة الله تعالى ولطفه بجميع العباد، إذ أوضح لهم الذي هم مُقبلون عليه بأدق التفاصيل. ولولا رحمته لما أرسل الرسل، وشرع الدين القويم الذي يحقق سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى ما يخاطب به الرسول صلى الله عليه وسلم أولئك الذين جحدوا الحق، وكفر بما أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ خَاطِب أيها الرسول المكذبين بقولك لهم ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ لا أطلب ولا ابتغي مما أقوله لكم أجرة منكم، تدفعونها إليَّ. وبهذا يدفع ويصحح عقولهم عن شبهة ما يدور في أذهانهم، بأنه يريد منهم صلى الله عليه وسلم مصلحة من دعوته

إليهم. فنفى من أنه يطلب من وراء هذه الدعوة مقابلاً يقدمونه إليه ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا ﴾ فلا أطلب منكم على القرآن، ولا على إرشادي وبياني لكم أجرة ولا مقابلاً تدفعونه إليَّ. فلا أطلب تكثراً وتكسباً مالياً، ولا وجاهة، ولا رئاسة من وراء ذلك، لينفي كل وهم يصدهم عن دين الله سبحانه وتعالى، فليس من مراده عليه الصلاة والسلام تحصيل السيادة، وما يترتب عليها من تحصيل المال. مما يفيد أهمية إزالة ما يتوهم المنصوح، أو المدعو للخير، أو غيره.

ثم يستثني من المكاسب فقط ما يتعلق بتحقيق المودة ﴿ إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ فيستثني من نفي المكاسب فقط تحصيل المودة، التي هي: المحبة، والتعامل المبني على التواد والتراحم. وتعني ﴿ ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ قرابة النسب. ومن ذلك قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾ قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وإنما المعنى: لكني أذكركم المودة في القربى. وقد روى هذا المعنى جماعة عن ابن عباس، منهم العوفي، وهذا اختبار المحققين، وهو الصحيح[1] وأورد ابن جرير رحمه الله تعالى أقوالاً في المودة. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكن بطن من بطون قريش إلا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم قرابة، فقال: لا أسألكم عليه أجراً إلا أن تَوَدُّني في القرابة التي بيني وبينكم. وقيل: لا أسألكم على ما جئتكم به أجراً إلا أن تَوَدُّوا قرابتي. وقيل: إلا أن تَوَدَّدُوا إلى الله تعالى، وتتقربوا بالعمل الصالح والطاعة. وقيل: إلا أن تصلوا قرابتكم. وقال ابن جرير رحمه الله تعالى: وأولى الأقوال: قل: لا أسألكم عليه أجراً يا معشر قريش، إلا أن تودُّوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم[2] وهي أقوال متظافرة غير متضادة، بل ومرادة ممن يدعوهم، لأن بها تتقوى الدعوة، وتلين بها قلوبهم، وتنطفي بها جذوة الحسد من قلوب الحاسدين، وكبرياء المتكبرين، ليتبين أهمية الحكمة في التعامل، وكسب القلوب، ببعثها إلى الحق والحقيقة، وإلى الأصل الذي تقوم عليه العلاقات. وألا يتطاول الإنسان على غيره. بل يستثمر كل مرتكز يمكن أن يحقق الأهداف. كما يعطي هذا البيان الكريم منهجية عامة عن سلوك الإنسان مع غيره، خاصة مع أقاربه، ومع من تربطهم به علاقة، كالعلاقة المهنية، وعلاقات الجوار، والصداقة، والمرافقة، وغيرها من علاقات الحياة الاجتماعية.

ثم يُرَغِّب اللهُ تعالى عباده في الخير، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا ﴾ أي: من يكتسب بفعله العملي أو القولي حسنة واحدة، فإننا نزيد له فيها بالتضعيف، الذي يفيد التكثير. وقد أفادت دلالة ﴿ وَمَن يَقۡتَرِفۡ ﴾ أي: من يكتسب ويتحصل على الحسنات. وهو الشأن الذي يفيد الافتعال

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧٩/٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٩٤/٢٠-٥٠١)

للكسب، بما يفيد المبالغة التي تتطلب مجاهدة النفس على أن تطلب الخير. ومن جميل البيان ودقته تعميم إتيان تنوع الأعمال الطيبة، بوصفها الوصف العام ﴿ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً ﴾ الذي يفيد الْحُسن من كل وجه، فكل عمل حَسَّنَتْه شريعة الله تعالى فإن ثوابه بالمضاعفة له، والتي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، لكثرة جُوده وسعة رحمته وكرمه سبحانه وتعالى. إذ قال عَزَّ وجل ﴿ نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ فلم تُخَصَّص ولم تُحدَّد الزيادة، بل وردت مطلقة، ووردت على وجه التحسين ﴿ نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ﴾ نزيد له فيها ما يزيدها حسناً، فبالتالي يستحق بها الفضل العظيم. مما يفيد محبة الله تعالى للأعمال الحسنة في جميع علاقات العباد، سواء مع ربهم تبارك وتعالى كالعبادات، أو مع أنفسهم، أو مع غيرهم، لتستوفي جميع تعاملات الإنسان وعلاقته، من البر، وحُسن الخلق. مما يفيد أن هذا الدين هو رحمة من الله تعالى، وأنه دين الفطرة والحق، وأنه من عليم رؤوف رحيم سبحانه وتعالى.

ولذلك ختم الله تعالى دلالة الآية بما يناسبها من أسمائه وصفاته العظيمة، فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ إن ربكم غفور شكور سبحانه وتعالى، وفي هذا بشارة عظيمة للمؤمنين، ومحفز غيرهم للإيمان، والدخول في دين الله سبحانه وتعالى. فلك الحمد والشكر يا ربنا على هذا الامتنان وهذا العطاء. اللهم اجعلنا من أهل فضلك وكرمك وإحسانك بمنك وجودك يا غفور يا شكور. فإن ربكم هو الغفور لذنوب عباده، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ ﴾ بما يفيد الترغيب والحث لعباده بأن يستغفروا ربهم جَلَّ جلاله، ويتوبون إليه، مما يبين رحمته من أن يعاقبهم على ذنوبهم بعد ما تابوا منها، وندموا على ما كان منهم، وأقلعوا عن الذي تابوا منه. وإنها لنعمة عظيمة أن يغفر الله تعالى لمن تاب وأناب، كما أن رحمته جليلة عظيمة وذلك برحمته لعباده المؤمنين. فالحمد لله رب العالمين. اللهم اغفر لنا وارحمنا. كما أن ربكم أيضاً ﴿ شَكُورٌ ﴾ أي: يشكر لكم ما كان منكم من الحسنات، فيضاعفه لكم. فربكم كثير الشكر للطائعين بأن يعطيهم أكثر وأعظم مما يستحقون ويرجون، وذلك لعظيم فضله وإنعامه. وشكره تجاه ما أنعم به عليهم من الإنعام، بأن أطاعوه وامتثلوا أمره وشرعه.

ثم ينتقل السياق الكريم من الله تعالى إلى بيان هول ما قاله المشركون لرسوله صلى الله عليه وسلم، بما يفيد التهديد والتحذير لهم مما هم فيه من الباطل، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ أيقول المكذبون بدين الله تعالى عن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ أيقول المشركون أن رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام اختلق الكذب واخترعه على الله سبحانه وتعالى؟ سؤال يفيد التهويل

والتحذير والتشنيع على قولهم. وورد البيان بصيغة الاستفهام ﴿ أَمْ ﴾ بمعنى بل، لتفيد الانتقال إلى نوع آخر من أقوالهم الْمُنْكَرة، لإفادة كثرتها وتعددها، وهذا واحد منها. أيقولون ذلك؟ استفهام توبيخ واستنكار، يدل على الوعيد لهم بما يستحقون من العذاب. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: أي: بل، أيقولون افترى محمد على الله كذباً بدعوى النبوة. والإنكار عليهم هو للتوبيخ[١] وقال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وهو الكلام المضروب عنه، والمنتقل منه. أي: أن المراد هو الانتقال إلى توبيخ آخر. فالهمزة المقدرة ﴿ أَمْ ﴾ للاستفهام التوبيخي، فإنهم قالوا ذلك، فاستحقوا التوبيخ عليه. والمعنى: أم قالوا افترى، ويقولونه. وجيء بفعل ﴿ يَقُولُونَ ﴾ بصيغة المضارع، ليتوجه التوبيخ على استمرارهم على هذا القول الشنيع، مع ظهور دلائل بطلانه[٢] فكيف يقولون ذلك مع قوة الحجة الظاهرة لهم بنبوته صلى الله عليه وسلم، وأنه رسول من الله تعالى. مما يفيد أن الحاسد والمستكبر يخترع الأباطيل من أجل الانتصار لما في نفسه من الاستكبار والتعالي، وأنه يستصعب في نفسه الاعتراف والإقرار بالحق لصاحب الحق. مما يفيد الحذر والانتباه من شرور النفس، ومعالجتها، ومجاهدتها، ومجاهدة الشيطان.

ثم يوضح ويبين سبحانه وتعالى كمال قدرته فيما لو أنه صلى الله عليه وسلم كان كاذباً ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: لو افتريت عليه كذباً كما يزعم هؤلاء الجاهلون ﴿ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ أي: لطبع على قلبك، وسَلَبَك ما كان آتاك من القرآن[٣] قال قتادة رحمه الله تعالى: يطبع على قلبك فينسيك القرآن. فأخبرهم الله تعالى أنه لو افترى عليه لفعل بمحمد ما أخبرهم به في هذه الآية. وقال مجاهد ومقاتل رحمهم الله تعالى: ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ ﴾ يربط على قلبك بالصبر على أذاهم، حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم[٤] فأفادت الآية الكريمة إثبات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وأمانته وتزكيته، إذ لو حصل منه الافتراء لعاقبه الله تعالى بما أخبر به من الختم على قلبه صلى الله عليه وسلم، ولكنه صادق أمين عليه الصلاة والسلام فيما جاء به عن ربه عَزَّ وجل. ومما يفيد كذلك أن قدرة الله تعالى عظيمة، وأنه يمحو ويزيل ما يشاء من القلوب عقوبة. والختم هو الطمس، وأن مستقر المحفوظ هو في القلوب.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥٣٤/٤)

(٢) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٦٩/١٠)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٣/٤)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٦)

فلو صح ما قال المشركون ﴿ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ فإن يريد الله تعالى بمشيئته أن يطمس على قلبك لفعل ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ ثم بعد ذلك ينتقل السياق إلى بيان قدرة الله جَلَّ جلاله على محو الباطل، وإحقاق الحق، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ﴾ فإن الله عَزَّ وجل يمحو الباطل مطلقاً من غير تحديد ولا تعيين، وذلك لكمال قدرته، وعظمة سلطانه وسعته، وأن يبدل الباطل بالحق، ويُثبته بكلماته التي تقطع الباطل وتزيله، وتُثبت الحق مكانه. بما يأمر ويحكم به سبحانه وتعالى. فإن قدرة الله تعالى عظيمة، ومتحققة بلا ريب ولا شك.

ثم يبين ويوضح تبارك وتعالى عظمة قدرته وسعة علمه ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ فإن ربكم عليم بما في صدور العالمين، فهو يعلم بما تتكتم به القلوب، وما تضمره في دواخلها، فيعلم ما يتكتم به صدر كل أحد من العباد، فيعلم الكاذب من الصادق، والمنافق والمدلس، والحاقد والحاسد والمستكبر، والمنافق والصادق، فلا يخفى عليه منكم شيء. وفي هذا ترهيب وتطمين. فهو ترهيب للمكذبين بأن الله تعالى مُطَّلع على قلوبكم فيعرف ما أنتم عليه من الكذب. وهو تطمين لأهل الإيمان من أن الله تعالى مُطَّلع على ما في قوبكم، فلا يضركم افتراء المفترين عليكم. فتعاملوا مع الله تعالى بما يعلم منكم، وليس بما يقول الأعداء عنكم. وهو تثبيت لكل مؤمن ما بقيت الحياة الدنيا.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾ ﴾

ومع كل ما حصل من المشركين من التَّقَوُّل على الرسول صلى الله عليه وسلم من الأقوال الفاسدة إلا أن رحمة الله تعالى بعباده تدعوهم إلى التوبة، وترك الباطل والعودة إلى الحق، فيقول عَزَ وجل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي

يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ ﴾ هو لا غيره الذي يقبل التوبة ﴿ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ أي: عمن تاب من العباد، مما اقترف من السيئات، فَأَقْلَعَ عن المعصية، وندم على ما كان منه، وعزم على عدم العودة لها، فأقبل على ربه بالتوبة مما كان من المعاصي، ومما اقترف من السيئات.

وقد ورد لفظ ﴿ عِبَادِهِۦ ﴾ بصفة العموم من غير تحديد، فيقبل توبة المؤمنين ممن يقترف بعض المعاصي، ويقبل توبة الكافر من كفره إذا دخل في الإسلام. مما يدل على عظيم رحمته جَلَّ جلاله، ولطفه وترغيبه في الاستقامة، كما يدل على كرمه العظيم. بل عَظَّم قبولها بأن تَصَدَّر البيان باسم الإشارة ﴿ وَهُوَ ﴾ الذي يفيد هو لا غيره عَزَّ وجل. ثم تلاها اسم الموصول ﴿ ٱلَّذِى ﴾ ليشير به إلى التخصيص، فأعطت مع ما سبق من اسم الإشارة ﴿ وَهُوَ ﴾ الحصر والتوكيد لِمَا بعدها من قبول التوبة، بأنه هو سبحانه وتعالى الذي يقبل جميع أنواع توبة العباد. ليعطي السياق أن الله تعالى هو الغفور الرحيم وليس لغيره هذه الصفة، وليعطي ذلك المبالغة في التوكيد، والحصر مع التنبيه، وشد الانتباه. ونفي اعتقاد الشريك. أو أن أحداً يغفر ويقبل التوبة غير الله سبحانه وتعالى.

ومن دقائق البيان كذلك أن تصدرت الآية الكريمة بحرف الواو الذي سبق اسم الإشارة ﴿ وَهُوَ ﴾ لإفادة الاستئناف ببيان جديد، كما ورد القبول للتوبة بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ يَقْبَلُ ﴾ بما يفيد الاستمرار في قبول التوبة، فإنه استمرار متتابع لا ينقطع طالما العبد في المساحة التي تُقبل فيها التوبة، وهي جميع حياة الإنسان، ما لم يكن في حالة الموت، وعاين مفارقته للحياة، كما ورد في الحديث (إن الله يقبل توبة العبد مالم تغرغر)[١] وكذلك إذا قامت الساعة، فطلعت الشمس من مغربها، كما ورد في الحديث (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه)[٢] ومن عناية ربنا تبارك وتعالى أن أظهر القبول للتوبة، ونسب قبولها له عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ﴾ حثاً عليها. وهذا من عظيم رحمته سبحانه وتعالى.

(١) الترمذي، صحيح الترمذي برقم (٣٥٣٧) وأحمد (٦١٦٠)

(٢) مسلم، صحيح مسلم، (٢٧٠٣)

ومن مزيد دقائق البيان أن ورد العفو عمن تاب من العباد بحرف ﴿عَنْ﴾ وليس بحرف **(من)** ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ ليفيد المجاوزة، كما قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: ليفيد معنى مجاوزة الشيء المقبول أو انفصاله عن معطيه وبإذنه، وهو أشد مبالغة في معنى الفعل من تعديته بحرف **(من)** لأن فيه كناية عن احتباس الشيء المبذول عند المبذول إليه، بحيث لا يرد على باذله[١] وهذا من الإعجاز البياني حتى في دقة الحروف الواردة في كلام الله تعالى، وعمق معانيها ودلالاتها.

فاشتملت الآية الكريمة على أمرين: الأول: قبول التوبة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فقبول التوبة في هذا السياق يفيد أن من رجع عن معصيته، سواء كانت من الكبائر كالشرك ونحوه، أو عن ما هو دون الكبائر فإن الله عَزَّ وجل بكرمه يقبل التوبة، بما تضمنته التوبة من الإقلاع عن الذنب، والعزم على عدم العودة إليه، والندم على ما فات. والأمر الثاني: متضمناً لمزيداً كرمه جَلَّ جلاله، فقال عَزَّ وجل ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ والعفو هو: الصفح والتجاوز عن الذنب، وترك عقاب صاحبه عليه، فهو إسقاط لحق واجب الأخذ به من الأفعال والأقوال الْمُوجِبة للجزاء والعقاب، لأن السيئة هي: الفعلة القبيحة التي هي ضد الحسنة. وباعتبار ورود قوله تعالى ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بعد قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فدل ذلك وأفاد أن المقصود بالسيئات في هذا المقام الصغائر من الذنوب، الدارجة عند الناس، فإن الله تعالى يعفو عنها ويصفح، وتأتي بمعنى آخر كما قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقبل التوبة في المستقبل، ويعفوا عن السيئات في الماضي[٢] وقال القرطبي رحمه الله تعالى عن قوله تعالى ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: أي: عن الشرك قبل الإسلام[٣] والأول أولى، باعتبار ورود قوله تعالى ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بعد قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فدل ذلك وأفاد أن المقصود بالسيئات في هذا المقام الصغائر من الذنوب، الدارجة عند الناس، فإن الله تعالى يعفو عنها ويصفح. ولا ينفي هذا ما ذكره ابن كثير والقرطبي رحمهما الله تعالى.

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٢/١٠)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٤/٤)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٦)

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن عظيم علمه ودقته، فقال عَزَّ وجل ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فإن الله تعالى عليم ومُطَّلِعٌ على جميع أفعالكم، فلا يغيب منها شيء البتة. فيؤكد عَزَّ وجل أنه يعلم ما تقومون به من أفعال، وأقوال. بما يفيد دقة الشمول والعموم والإحاطة لجميع نشاط وتصرفات الإنسان. ووردت كلمة العلم بصيغة المضارع ﴿وَيَعْلَمُ﴾ لتفيد استمرارية العلم وديمومته، وعدم انقطاعه عنكم لحظة واحدة، لأنه سبحانه وتعالى لا تأخذه سِنة ولا نوم. وكذلك وردت دلالة ما أفعال الإنسان بصيغة المضارع ﴿تَفْعَلُونَ﴾ لتفيد تعميم استمرار علم الله تعالى لعمل الإنسان المستمر، فعلم الله تعالى بتصرفات الإنسان لا ينقطع عن أفعالهم المستمرة أبداً. لِيُثْبِت بذلك الحساب والجزاء لكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، بما يفيد التحذير من المعاصي، والحث على المسارعة للتوبة. والتبشير للمطيع بأن الله تعالى مُطَّلِع على طاعتكم، وتجنبكم المعاصي، بما يغرس في المؤمن استشعار مراقبة الله تعالى له في جميع تصرفاته.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأن المؤمنين هم الذين يستجيبون له، فيزيدهم من فضله، بينما أهل الكفر يعاندون، فلهم ما يستحقون من العذاب الشديد، فقال عَزَّ وجل ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فالمؤمنون الذين يعملون بالطاعة يلبون ويستجيبون لنداء ربهم. وقد أفادت دلالة ﴿وَيَسْتَجِيبُ﴾ الانقياد من غير تردد. فهم يلبون مراد وإرادة ربهم بسرعة الامتثال فيما يأمرهم به، أو ينهاهم عنه عَزَّ وجل. وهم المتصفون بالصفتين العظيمتين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل بالصالحات يقودهم ويحملهم على الطاعة والانقياد لربهم من غير تردد. وبالتالي فإنه يكرمهم تبارك وتعالى ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ فيكافئهم بأن يزيد عليهم بالإكرام والعطاء لهم من فضله.

ودل معنى ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ بأنه أكثر مما يستحقون وما يطلبون. لأن الزيادة تفيد مجاوزة ما يستحقون. بل ورد الفضل عاماً ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ليستوفي كل نوع من الخير. وذكر أهل التفسير أن للآية الكريمة وجه آخر. فقال ابن كثير رحمه الله تعالى: قال السدي: يعني: يستجيب لهم، وكذا قال ابن جرير، معناه: يستجيب لهم الدعاء لأنفسهم، ولأصحابهم، وإخوانهم[١] وبمثله قال الشوكاني رحمه الله تعالى[٢] فيكون معنى

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١٢٤/٤)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥٣٥/٤)

قوله تعالى ﴿ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ ﴾ أي: يزيدهم على ما طلبوا منه سبحانه وتعالى، وعلى ما يستحقونه من الثواب، تفضلاً وتكرماً. وهذا من رحابة أوجه الآية الكريمة، وغزارة معطيات السياق. ليظهر الإعجاز في البيان، كما هو التفضل والإكرام على المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

وقد أفاد قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ العلاقة الترابطية والمتلازمة بين الإيمان وبين العمل بالطاعة لله تعالى وفق ما شرع. فالذين آمنوا بتصديقهم بالله تعالى وبرسوله وبما قررته شريعة الله تعالى، وعملوا الصالحات التي هي القيام بما أوجب الله تعالى من العبادات الشاملة لجميع ما أمر الله تعالى به من الفرائض وغيرها من السنن والمستحبات. فيتعاضد بذلك الإيمان مع عمل الصالحات، فيشتركان في تحقيق معنى الطاعة ولامتثال. وسَمّى اللهُ سبحانه وتعالى أعمال دينه بالصالحات، لأن جميع الأعمال التي أمر الله تعالى بها قد اتصفت بتحقيق الصلاح والإصلاح في النفس ومع الغير. وتستوفي جميع أوامره عَزَّ وجل، وفي هذا تقرير بأن منهج الله تعالى قد انتفى منه وعنه الباطل، وثبت صلاح ما فيه للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، فهي جملة غاية في كمال دلالتها، وبلاغة مضمونها، وجزالة ألفاظها، فثلاث كلمات ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ حوت منهج الله تعالى بكامله. وهذا البيان يستحث لمؤمنين على لزوم الطاعة، والمسارعة إلى كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه. وهو فضل عظيم من الله سبحانه وتعالى لأهل طاعته.

وأما الذين كفروا، وجحدوا دين الله تعالى فإن لهم ما يستحقون من العذاب ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ فقد سماهم الله تعالى بما هم عليه من الكفر والجحود للحق ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ أي: المنكرون لدين الله تعالى، فإنه بناء على عدم استجابتهم لدين الله تعالى ﴿ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾ فلهم من الله تعالى عذاب شديد في قوته أثره عليهم، جزاء بما كان منهم من جحود الحق وإنكاره. وفي هذا ترهيب وتهديد للكافرين، واستحثاث لهم بأن يعودوا لرشدهم، فيؤمنوا ويطيعوا ربهم ليفوزوا بما فاز به أهل الإيمان. وهذا البيان هو من رحمة الله تعالى بهم، حتى ينقذوا أنفسهم من العذاب بالطاعة قبل فوات الوقت عليهم.

ثم ينتقل البيان الكريم إلى بيان حكمة الله تعالى في بسط الرزق وتقديره، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ فبعد أن سبق وأن بين تبارك وتعالى في هذه السورة حكمته في بسط الرزق وتوسعته لبعض الناس دون بعض، وتقتيره وتقليله لبعض الناس دون بعض، حيث قال سبحانه وتعالى ﴿ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ ﴾ فإن الله تبارك وتعالى هو الذي يوسع الرزق ويُكَثّره لمن يشاء. فيعطي ويوسع الرزق بما يشاء ولمن يشاء من عباده

إلى درجة البسط في التوسعة، بما يفيد عظيم رحابة التوسعة إلى حد الإغناء. ومن الناس من يكون حاله في الرزق بما قَدَّرَه الله تعالى من المحدودية. فهو الذي بحكمته يقدر قلة الرزق، ويضيقه، ويوسعه تارة، ويضيقه تارة، وفق حكمته وعلمه بعباده مما لا يعلمونه من أنفسهم حال توسعة الرزق عليهم، وحال تقديره بالقدر الذي يناسب طبع وحال كل واحد منهم. وهذا من عظيم حكمته، ومن رحمته بالعباد.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى بيان حكمته سبحانه وتعالى في بسط الرزق وتقديره، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ لو أن الله تعالى بسط الرزق لعباده جميعاً بالتوسعة لهم فوق حاجتهم ﴿ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لحصل منهم التجاوز في الحد إلى التبذير، والغرور والبطر والعدوان والظلم، والانشغال بالشهوات، بحيث يحملهم ذلك على البغي والطغيان على بعضهم البعض، كحب التعالي والتفاخر، وانشغلوا بذلك عن طاعته سبحانه وتعالى، وعن البر والتآلف فيما بينهم. لأن النعمة إذا زادت عند البعض استبطر وبغى بها على غيره ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ فاقتضت حكمته ولطفه في سياسة وتربية العباد أن يُنَزِّل الأرزاق بالقدر الذي يشاء سبحانه، وفق علمه وحكمته بصلاح العباد، فجعله خاضعاً لمشيئته التي تضمنت حكمته الجليلة، بما يمنع بينهم البغي ويقلله. لأنه تبارك وتعالى ﴿ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ فربكم خبير بخفايا العباد، وما انطوت عليه نفوسهم، فهو عَزَّ وجل ﴿ خَبِيرُۢ ﴾ ببواطن الأمور وأسرارها الخفية، فهو عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فلا يغيب عنه شيء أبداً، فهو خبير بمواضعها، مهما كان حال العباد، وفي أي موضع كانوا. وكذلك ﴿ بَصِيرٞ ﴾ بظواهر الأمور وعلانيتها، فتجمع دلالة ﴿ بَصِيرٞ ﴾ رؤية ربنا تبارك وتعالى للعباد، وتجمع معها المعرفة بتدبير شؤون العباد. وبالتالي لا يفوت عليه من أمركم وشأنكم شيء البتة. وهي تفيد المبالغة في قوة تحققها من الله تعالى في عباده، وفي الكون كله، بما يفيد أن حكمته وتقديره لكل شيء عين التقدير وبلوغ منتهى الحكمة فيما يقدره ويجريه سبحانه وتعالى، وهما صفتان عظيمتان لله عَزَّ وجل. فإن من عباده من يكون صلاحه بالفقر، ومسيس الحاجة، ومنهم مَن لا ينصلح إلا بالغنى، فلأنه ﴿ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾ بكم، فإنه ينزل الأرزاق بالقدر الذي يشاء، فيرى أنه الأحسن والألطف للعباد فرداً فرداً، حتى يتلافون شر وضرر البطر، بما يحصل به من التطاول والتنازع والتعالي والتقاتل، وغير ذلك من المفاسد التي لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. وهذا من لطفه ورحمته بالعباد، إذ أنه لم يبسط الرزق للجميع، بل يبسط للبعض بمعرفته بهم، ويقدر للبعض بمعرفته بهم، والأصلح لهم. مما يستدعي من المؤمن شكر الله تعالى على أي حال، ويربي نفسه على الرضا، ليعيش سعيداً بما أعطاه ربه عَزَّ وجل.

فالعلم بهذا يربي في العبد الحمد والشكر لله تعالى على أي موضع كان العبد فيه، فلا يسخط ولا يتضجر، فإن كان في نعمة من البسط في الرزق حمد الله تعالى وشكره، واستخدمها في طاعة ربه عَزَّ وجل، وإن كان قد قُدِّر عليه صبر وشكر وحمد الله تعالى على كريم تدبيره. ونظر إلى أوجه الإنعام الأخرى، كنعمة رزق العبادة والطاعة، أو نعمة الذرية، أو الزوجة، أو العلم، أو الصحة والعافية. فأرزاق الله تعالى لا تُحصى ولا تُعد. فليتأملها المؤمن من كل وجه.

وبعد بيان حكمته سبحانه وتعالى فيما لو بسط الرزق لعباده، ينتقل بهم إلى نوع من أنواع رزقه العظيم، وعطائه الكريم الشامل لعموم العباد والبهائم والدواب، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ إن ربكم هو وحده لا شريك له الذي ينزل المطر الذي يروي الأرض بما يكفيها ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ فهو لا غيره الذي ينزل الغيث من السماء بقدرته وتصريفه للرياح والسحاب، فنفى بذلك كل اعتقاد من اعتقد أن نزول المطر بالأنواء، أو بنحو ذلك. فربكم هو وحده لا شريك له الذي ينزل المطر الذي يروي الأرض بما يكفيها، وما يعقب نزوله من إخراج الأقوات مما تنبته الزروع المتنوعة ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ أي: من بعد أن حصل عندهم اليأس من مجيء ونزول الغيث عليهم، لِتُنْبِتُ الأرض، ويرتوي الناس، ويسقون زروعهم، ويرتفع منسوب المياه في الأرض، فتحتفظ به في خزائن جوفها. ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ وذلك ببسط المطر على الأرض، لتعود الحياة للأرض بعد أن كانت ميتة بالجفاف، وحتى يئس الناس من نزول الغيث، فَدَبَّت الحياة في الأرض بظهور الأعشاب والزروع المختلفة، فتصبح الأرض مخضرة بالحياة والانتعاش؛ بعد أن كانت جافة ميتة لا حياة فيها. فهذا شيء من رحمته سبحانه وتعالى، وقد ورد النشر لرحمته بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ﴾ لبيان الاستمرار والتكثير من الخير بعد إنزال الغيث منه سبحانه وتعالى.

ومن دقائق السياق أن الله تبارك وتعالى سماه في هذا البيان ﴿ ٱلْغَيْثَ ﴾ ولم يسمه سبحانه وتعالى بالماء، لأن الغيث من الإغاثة والرحمة بمن أغاثهم، بما يدل على استجدائهم، وافتقارهم للماء ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ فأغاثهم سبحانه وتعالى. فناسب الغيث من الإغاثة لحالهم من اليأس الذي وصلوا إليه. وهذا من دقائق الإعجاز في البيان للقرآن الكريم، باختيار أدق الكلمات التي لا يعبر غيرها عن مكنون دلالتها. ثم نسب إنزال الغيث له سبحانه وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ لبيان أنه هو المختص والمخصوص بإنزال الغيث، فلا شريك له في تدبيره، بل تصدر البيان باسم الإشارة ﴿ وَهُوَ ﴾ وتلاه اسم الموصول ﴿ ٱلَّذِى ﴾ ليفيد

الحصر والقصر، فأكد حصر إنزال الغيث منه وحده لا شريك له. كما ورد الإنزال بصيغة الفعل المضارع ﴿ يُنَزِّلُ ﴾ لإفادة التكرار والتجدد، مما يعني أن لا تقنطوا من رحمة ربكم، فإن نزول الغيث متجدد ومتكرر. فنحمد الله تعالى على كريم وجميل تدبيره، وجميل خطابه الحامل للرحمة بعدما يئسوا.

ثم يبين سبحانه وتعالى قُرْبَهُ من عباده، ورحمته بهم، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ فربكم الذي أغاثكم بالغيث من بعد يأسكم هو لا غيره ﴿ ٱلْوَلِيُّ ﴾ المتولي لشأنهم، والمتصرف بعباده ولعباده وعموم خلقه بما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم. وهو يعطي دلالة القرب والدنو، فهي تجمع جميع أنواع العلاقة بين العبد وربه، من النصرة، والحفظ، العطاء والإنعام، وغير ذلك، لأن الولي هو المعطي لوليه، كما أن ولاية الخالق ليست كولاية المخلوق للمخلوق، فولاية المخلوق للمخلوق مبنية على المعاوضة بالمنافع.

وكذلك فإن ربكم هو ﴿ ٱلْحَمِيدُ ﴾ المحمود العاقبة في جميع تدبيره، وما يُقَدِّرُهُ للعباد، وما يفعله في خلقه جميعاً. مما يفيد عليكم أن ترجعوا إلى ربكم الله سبحانه وتعالى، فليس لكم من ولي من دونه، فاعبدوه ووحده، وأطيعوه وفق ما شرع، وتقربوا إليه بامتثال شرعه، ليغيثكم ويرزقكم، ويوفقكم. فهي موعظة عظيمة من الله سبحانه وتعالى عن غيثه وغوثه للعباد من بعد أن قنطوا ويئسوا من الغيث. فالحمد لله تعالى على جميع ما أنعم به من الخير، وجميع ما دفع من الشرور.

ثم يتابع عَزَّ وجل توجيهاته الكريمة في بيان آياته وبراهين ألوهيته وملكه وعظيم تدبيره ووحدانيته سبحانه وتعالى، فيستمر ويَتَوَسّع البيان من الله تعالى في لفت أفكار وعقول الْمُخَاطَبين إلى المزيد من آياته الباهرات سبحانه وتعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ فبدأ البيان الكريم بإظهار أن المذكور من خلق السماوات والأرض هي جزء من آياته ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ بما يدل على كثرتها، وتنوعها، وتعددها، وإن هذا هو من بعض آياته عَزَّ وجل العظيمة الباهرة ﴿ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ وبدأ بالسماء وهي الأبعد، ثم تدرج إلى الأقرب وهي الأرض، ثم إلى ما يعايشونه من المخلوقات التي تدب على الأرض.

فأولاً: السماء ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ فإن من نظر إليها وتأمل ارتفاعها، وتأمل لونها، وتأمل قيامها من غير أعمدة تحملها وتُقِلُّهَا، ورأى نجومها، وكواكبها، وما يجري في العلو من الهواء والرياح والسحاب لأدرك أن هذه العظمة في الخلق دليل على عظمة من خلقها، ولأحدث شأنها عند من تأملها الإيمان بالواحد

الديان، وأنه لا إله غيره سبحانه وتعالى، وأنه على كل شيء قدير، ولأوجب ذلك التصديق بما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، وبجميع ما فَصَّلَهُ من أمور المغيبات، وأيقن أن هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله العزيز.

وإذا تأمل المتأمل في الأرض ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وجد فيها ما يبهر العقول من عظيم صنعه، من الجبال والأودية والسهول والهضاب والأنهار، والبحار، والزروع، وانتشار الحيوانات والدواب فيها، وغيرها من المخلوقات، مع توازن ما صنع وأوجد مع حياة الإنسان وحاجاته ومتطلباته، وما يستجد في حياته، مع تسخير ذلك للإنسان، فأوجب ذلك عليه اليقين بالواحد الديان، وأنه لا إله غيره، وأنه على كل شيء قدير، ولأوجب ذلك التصديق بما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن البعث والحساب والجزاء، والجنة والنار، وبجميع ما فصله من أمور المغيبات. وأيقن أن هذا القرآن العظيم الذي أنزله الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم هو كتاب الله العزيز.

ومن مزيد عناية رب العباد بعباده جَلَّ شأنه أن زَوَّد الأرض بما يحتاجه الإنسان، فقال تعالى ﴿ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ فنشر في أرجاء الأرض من جميع أنواع الدواب التي يحتاجها الإنسان، فواءم سبحانه وتعالى بين حاجة الإنسان وبين إيجاد تلك الدواب، مع تسهيلها له، فتحمله، ويحمل عليها ما يشاء من المتاع، ويتاجر بها، ويأكل منها، ويبيع منها، وغير ذلك من المنافع المتعلقة بألبانها، وأوبارها وأشعارها وجلودها. ليدل على عظمة التدبير، وعظمة الخلق، وإكرام الله تعالى لهذا الإنسان، وتسخير ما يحتاجه إليه. بل وأوضح إكرامه بصيغة الكثرة بالنشر والانتشار للدواب ﴿ وَبَثَّ ﴾ فالبث يعني النشر والتوزيع، بحيث يجد الدواب أينما كان، وأينما اتجه في الأرض.

مما يستدعي من العباد توحيد ربهم تبارك وتعالى بالعبادة، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، والامتثال لشرعه الحكيم، وشكره على هذا الإنعام العظيم. فقد عَلَّمَ الله تعالى عباده ولفت انتباههم إلى عظيم تدبيره، وإحسانه عليهم. مما يفيد ويدل على أهمية العناية بمنهج القرآن الكريم وأساليبه في تربية العباد، وتفتيح أذهانهم، والارتقاء بعقولهم، وأبصارهم وبصائرهم بما خلق في هذا الكون من الخلق والتدبير، وأنها أكبر وأعظم وسيلة للارتقاء بالعقول، وتهذيبها ودعوتها للطاعة والامتثال لله رب العالمين.

ثم يتدرج بالْمُخَاطَبِين إلى ما يجب أن يستدلوا بما سبق على البعث والنشور والحساب والجزاء، فقال تعالى ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ فإن ربكم سبحانه وتعالى على جمعكم بعد تفرقكم بالموت إذا أراد وشاء لقادر على ذلك، فمن خلق هذا الكون العظيم، ودبر شؤونه وشؤونكم بهذه الدقة والقدرة، لقادر على جمع أولكم وآخركم ببعثكم بعد موتكم. بمعنى فما الذي يمنع من ذلك مع كمال القدرة التي تعاينونها وتشاهدونها

وتعايشونها؟ فلماذا ينكر البعض البعث بعد الموت؟ فهو بيان يعيد العباد المنكرين إلى الحقائق والبراهين والدلائل. فإنه دين علم، ودين حجج وبراهين وآيات عظيمة، بما يؤكد أنه دين الله تعالى، وأن هذا القرآن الذي حوى هذا البيان أنه من عند الله تعالى، أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم.

ثم يعلل سبحانه سبب ما يصيب به بعض عباده من الابتلاء، كالكوارث، والهدم والغرق، والأمراض، والقلة، وغيرها من أنواع الابتلاءات. فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ فما أصابكم أيها الناس مما تكرهون من الحوادث ونحوها في أنفسكم وأهليكم، ومعيشتكم، وأرزاقكم، وفي صحتكم، فإنها بسبب ما كان منكم، مما اجترحتم من السيئات، فقد حصل منكم ما يستوجب معاقبتكم.

وتعني المصيبة في قوله تعالى ﴿مِّن مُّصِيبَةٖ ﴾ أنها كل ما يحدث للإنسان مما يكره من الضرر، والفقد أو القلة والنقص في محبوب لديه، فإن تلك المصيبة بسبب منكم ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ فإن سبب حصول المصائب هو بما كان منكم، فأنتم الذين جنيتم على أنفسكم بما أصابكم، مما حصل ويحصل منكم من المعاصي، والإخلال بدينكم، وبالطمع، وبالحسد. مما يفيد حاسبوا أنفسكم، واستقيموا، فإنه لا يؤاخذ الإنسان إلا بما اجترح. مما يفيد أن معاقبة الله تعالى للناس هو بسبب ما يكون منهم من البغي والفساد.

وقد أظهر الله تعالى ما قدمه الإنسان من المعاصي بأنه بكسب أيديهم ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ أي: من صنيعهم، باعتبار الأيدي هي القوة للإنسان في الأفعال والإحداث بما يريد تغييره أو هدمه، أو انشاؤه، وهي كناية عن كل ما يكون من الإنسان. وليفيد المحسوس، لأنه الأظهر والْمُظْهِر لما يكون من الإنسان من والقول والعمل، فالقول من الإنسان هو بمثابة المحسوس لما يُحدثه من أثر في الغير. فيزداد البيان بذلك وضوحاً واكتمالاً واستيفاء. كما عزز ذلك بصفة التحصيل وهو الكسب ﴿كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ بل وزاد التأكيد بأداة ﴿فَبِمَا ﴾ التي أكدت تحصيل المصائب بما كسبت يد الإنسان، فلم تكن من غيره عليه، ولم تأتيه المصيبة من غير سبب. لتفيد تحذير الإنسان من نفسه، فهو الجاني والظالم لنفسه. وفي هذا دقة التحليل في إظهار العلاقة بين الإنسان وبين ما يحدث له مما يكره. وبما يبين وجُوب الاستقامة حتى تستقيم أمور العبد، فيبتعد عن كل ما نهى الله تعالى عنه، ويأتي بما أمر الله تعالى به.

ومع هذه المصائب من الإنسان، فإن الله تعالى ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ أي: فيتجاوز ربكم عن الكثير من سيئاتكم، فلا يعاقبكم عليها. فكيف لو عاقبكم على كل ما يكون منكم من المعاصي؟ مما يستدعي

التأمل والتفكر. وأن دليل عفوه عن الكثير هو ما أصابهم وأغاثهم به من الغيث الذي أمطر الله تعالى به على الناس، كما ورد في الآية السابقة. فلولا عفوه، لأهلككم بالقحط. مما يفيد: كيف لو عاقبكم على كل ما يكون منكم؟ لكان هلاككم الفظيع، ولكن من رحمته ربكم هو حلمه عليكم، وأنه يتجاوز عن الكثير، وأنه يعاقبكم بالمصائب من باب التذكر، لتعودوا إلى رشدكم. مما يبين شدة ظلم الإنسان لنفسه، ولولا تأديب الله تعالى لأمعن في البغي. وفي هذا تنبيه للإنسان، حتى يفهم الحقائق، ويعالج أمره وفق شريعة ربه، حتى يسلم من العقاب في الدنيا والآخرة.

ثم يخبر الله تعالى عن ضعف هذا الإنسان أمام قوة ربه سبحانه وتعالى، بما يدفعه بهذا العلم إلى الطاعة والامتثال، وأن لا يتكبر على الله تعالى، فيقول عَزَّ وجل ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ فما أنتم أيها الصادون عن دين الله تعالى بفائتين من قدرة وقوة ربكم عليكم، مهما كان منكم. وقد أورد الله تعالى كمال قدرته بتعميم الأرض ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فأينما كنتم في الأرض على سعتها، فإنه مدرككم بما يريد، بما يبين كمال قدرة الله عَزَّ في علاه، ثم يؤكد ذلك بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ وليس لكم أحد يوالكم ويناصركم، حتى يمنع عنكم ما أراده الله تعالى بكم. فأنتم في قبضة إرادة الله سبحانه وتعالى، فلا مفر لكم مما يريده بكم، أينما اتجهتم. مما يفيد التهديد والتحذير، والترهيب للكافرين من كفرهم، وهو استدعاء لهم للإسلام بدلاً من وقوعهم في عذابه عَزَّ وجل.

فأفاد قوله تعالى ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ أنهم مغلوبون بالانقياد الكامل لله تعالى ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ ﴾ فليس لكم من يتولى شأنكم ﴿ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ ولا من يتولى مناصرتكم، والدفاع عنكم، لأن جميع الخلق عبيد له سبحانه وتعال. ومقهورين بقوة الله تعالى، وتحت حكم الله عَزَّ وجل وسلطانه وسلطته. فهو نفي قاطع، وحكم جازم. فليست هناك قوة من دون الله تعالى تنفعكم بأي نفع أيها الظالمون. فمن كان يعتقد أن له ولي من دون الله تعالى ينصره، ويمنعه مما يريده الله تعالى فإن حسبانه خاطئ وكاذب، فلا قوة له، ولا لأحد أن يمنعكم وينصركم من مراده عَزَّ في علاه، ولا أن يحول بينكم وبين ما يريد أن يقضيه فيكم. ليفيد التعليم، والتحذير، والإنذار من أن يحل بهم عذاب الله تعالى، ونكايته بهم، وأن واجب كل أحد من الناس أن يسعى لمصلحته بالنجاة من عذابه سبحانه وتعالى، فكل إنسان يتحمل ما كان منه.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾
وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ
هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾
وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى
ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

ينتقل البيان الكريم إلى المزيد من إظهار آيات الله تعالى الباهرة التي تثبت للعباد أن الله تعالى رب كل شيء ومالكه، وأنه على كل شيء قدير، وأنه الحكيم في تدبيره، والعظيم في سلطانه، بما يجب أن يوحدوه ويطيعوه فيما أمر وشرع. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ إن من آيات ربكم المعجزة الدالة على وحدانيته جَلَّ في علاه، وأنه ربكم لا شريك له في ملكه وتدبيره أنكم تشاهدون بأعينكم ﴿ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ فمن آياته جريان السفن العظيمة في البحر وهي بارزة وظاهرة فوق سطحه وكأنها علامة، فإن من عظمة بنائها أنها كالجبال الشاهقة، فأصبحت علماً، أي: بمثابة المنارة العالية. وقد ورد تكثيرها بصيغة الجمع ﴿ ٱلْجَوَارِ ﴾ جمع جارية وهي السفينة، نسبة لجريانها في الماء، ومَثَّلَها في البحر بأنها ﴿ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴾ وهو جمع علم، وهو الجبل العظيم، لأنه بائن في وسط الأرض، وكذلك السفن بائنة وسط مياه البحر. ومن دقائق البيان إفراد البحر. ليفيد الجنس، جنس البحر. فيعم البحار كلها. فجريان السفن فوق ماء البحار وهي بتلك الضخامة آية عظيمة على قدرة ربكم سبحانه وتعالى.

ثم يلفت انتباه عباده على قدرته عَزَّ وجل على إيقاف ما يريد إيقافه من السفن حتى لا تتحرك في وسط البحر، وذلك بتحكمه وتصرفه عَزَّ وجل في أسباب جريانها، من خلال حركة الرياح، فقال تبارك وتعالى ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ فإن يشأ ربكم أيها الناس يُوقف الريح عن حركتها التي جعلها سبباً لحركة السفن ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ ﴾

فتصبح السفن ثابتات، رواكد، لا حركة لها على البحر البتة، وهذا يسري على السفن الشراعية، بل وحتى على البواخر الكهربائية وكذلك التي تعمل بالوقود ﴿ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾ أي مستقرة وثابتة على سطح البحر. فلو شاء الله تعالى لصدَّهَا بالرياح القوية التي توقف حركتها، ولهاج عليها الموج من أمامها فتوقفت، ولو شاء لأغرقها. ليتبين أن الأسباب كلها بيد الله تعالى، يقدرها على ما يحب ويشاء.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما في ذلك من الآيات والعبر لمن اتصف بالصبر على البلوى والشكر على النعمة، فقال عزَّ وجل ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴾ إن في ذلك التسخير، وتلك القدرة لآيات وعبر لمن اتصف بالصبر على البلوى والشكر على النعمة. وبدأ البيان بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ ثم باسم الإشارة المسبوق بحرف الجر ﴿ فِي ذَٰلِكَ ﴾ لإفادة الإشارة إلى شأن السفن، ومشيئته سبحانه وتعالى لها بالركود، أو السير. فبالركود يحتاج شأنها الصبر، وفي حالة السير يحتاج شأنها الشكر. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ ﴾ أي: دلالات عظيمة ﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴾ ففي ذلك دلالات وعلامات لكل من كان كثير الصبر على البلاء، وكثير الشكر على النعماء، وهو المؤمن، لأن المؤمن هو المتصف بصفة الصبر على البلاء، والشكر على النعمة. وما عدا المؤمنين فلا صبر ولا شكر عندهم، لما في قلوبهم وأفكارهم من نقائض الإيمان. مما يبين عظيم فائدة الإيمان على الفهم، وعلى التعامل، وعلى تأويل وتفسير الأحداث، وعلى منزلة مكارم أخلاق الصبر على البلاء، وشكر الله تعالى على النعماء. اللهم اجعلنا من الشاكرين يا رب العالمين.

ثم يبين سبحانه وتعالى الخيار الآخر، وهو ﴿ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴾ أي: أو يغرقها، فإن دلالة ﴿ يُوبِقۡهُنَّ ﴾ تفيد الهلاك بالغرق، بسبب ﴿ بِمَا كَسَبُواْ ﴾ بما اجترحوا من السيئات والمعاصي، ومع هذا فإن ربكم ﴿ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴾ ويتجاوز ربكم عن الكثير من سيئاتكم، فلا يعاقبكم عليها. فلولا عفوه، لأهلكهم بالغرق. مما يفيد: كيف لو عاقبكم على كل ما يكون منكم؟ لكان هلاككم ودماركم حاصل، ولكن من رحمته سبحانه وتعالى، وحلم ربكم العزيز الحكيم أنه يتجاوز عن الكثير. فهي خيارات توضح عظيم قدرة الله تعالى، ورحمته بالعباد، مع تعديهم وتجاوزهم. فهو يعفو عن الكثير، فكيف لو لم يكن هناك عفو منه سبحانه وتعالى؟ لحصل الهلاك. فنسأل الله تعالى المغفرة والعفو والصفح، ونسأله الهداية والتوفيق.

ثم يخبر تبارك وتعالى عن علم ومعرفة الذين يخاصمون في الدين بأنهم لن ينتصروا بما يحبون ويتمنون، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴾ فالذين يجادلون في آياتنا الدالة على توحيدنا يعلمون أنه ليس لهم محيد ولا مهرب ولا ملجأ من عذاب الله تعالى وبأسه ونقمته. فهم مقهورون

بقدرة الله تعالى. قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى: وللمفسرين في معنى الآية قولان: أحدهما: ويعلم الذين يخاصمون في آيات الله حين يؤخذون بالغرق أنه لا ملجأ لهم. والثاني: أنهم يعلمون بعد البعث أنه لا مهرب لهم من العذاب[١] وكلا المعنيين متظافرين غير متعارضين، مما يدل ويفيد أن الذين يجادلون بالباطل في دين الله تعالى يعلمون علم اليقين أنهم على باطل، وإنما باطلهم هو من باب العناد الذي يقوده استكبار النفس على الحق. مما يبين خطورة الكبر على النفس، وأنه يقودها إلى التعالي، وعدم الاعتراف بالحق، ليحصل لها الهلاك. وأنهم سيعلمون بعد البعث أنه لا مهرب لهم مما يرون من العذاب الماثل أمامهم. وهي النار الموقدة.

ثم ينتقل التوجيه الكريم إلى بيان حقيقة حظوظ الدنيا من الأرزاق المتنوعة، فيقول تبارك وتعالى ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فما أعطاكم ربكم من حظوظ الدنيا كالأموال والأولاد والأرزاق، والجاه، والمكانة، وعموم الأملاك، فإنها متاع ﴿ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ فإنه متاع مخصوصة به الدنيا فقط، وأما ما عند الله تعالى في الآخرة فهو أعظم وأبقى، فلا يزول كما يزول متاع الدنيا. فيحض ويحرض سبحانه وتعالى العباد بهذا البيان إلى عدم الانشغال بالدنيا الزائلة وإهمال وترك متاع الآخرة الذي لا يفنى ولا يزول. ومن دقائق البيان تعليق وربط الإيتاء في الدنيا بالحياة ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ بما يفيد أنه أثناء حياتكم الدنيا فقط، وأما بعد موتكم فينتهي ذلك الاستمتاع، فمتاع الدنيا مقرون بحياتكم فيها، ثم ترحلون عنه. وفي هذا إثارة الانتباه والتعقل، بأن تجعلوا حساباتكم أيها الناس صائبة، بأن تُؤثِروا الحياة الآخرة الباقية على متاع الدنيا الزَّائل.

فقد أخبر الله تعالى عن حقارة الدنيا، والتزهيد في زهرتها وزينتها الفانية؛ قياساً على الحياة الآخرة الباقية، وما فيها من النعيم المقيم. فبدأ البيان الكريم بتفسير ما أُوتي للعباد من متاع الدنيا، وسماه متاع ﴿ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ والمتاع هو: هو ما يُنْتَفَعُ به، مثل المال، والأطعمة، ونحوها. ثم قصر ونسب هذا المتاع على الدنيا الفانية فقط ﴿ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ بما يفيد بقاء هذا المتاع في الدنيا وعدم رحيله معكم إلى عالم الآخرة، الذي يختلف عن الدنيا، فلا يكون معكم بعد رحيلكم عنه وعن الدنيا الفانية الزائلة شيء من ذلك، فإن ذلك ليس براحل معكم، فحظكم من ذلك المتاع هو الاستمتاع المؤقت، والاختبار والابتلاء به. بما يفيد أهمية إعادة التفكير في الاستمتاع بها، وعدم الغرور بما فيها، وألا تشغلكم عما هو لكم في الآخرة. وبما يفيد أن متاع الآخرة خير من ذلك، وغير ذلك، ومختلف عنه تماماً. ففي هذا البيان تصحيح وتصويب للمفاهيم والأفكار. مما يبين

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٨٢/٧)

أهمية أن يتولى المعلم والداعية والتعليم على أي مستوى تصحيح وتصويب المفاهيم. وأن في كتاب الله تعالى خير الأمثلة وأحسنها وأبركها.

ومن دقائق البيان أن ورد الإيتاء بالإعطاء الذي لم يُذكر اسم فاعله ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم ﴾ لشد الانتباه للذي يوجهكم إليه سبحانه وتعالى، وهو العطاء. كم أفاد قوله تعالى ﴿ مِّن شَىۡءٍ ﴾ التبعيض. أي: بعض مما عند الله تعالى، فإن الذي أوتيتم هو بعض الشيء، وليس كله، بما يفيد أن خير الله تعالى واسع عظيم لا تدركون سعته، كما أنه متنوع في حجمه وأشكاله وأنواعه وعدده، ولستم متشابهين في تحصيل الأشياء على وجه الدقة، بل إنكم متنوعون، حتى في التدبير والتفكير، ونوع ومقدار التحصيل، لتحصل الحاجة المتبادلة فيما بينكم، وينتفع الناس بعضهم ببعض، من خلال ما أُوتوا من التنوع. وهذا من كمال تدبيره عَزَّ وجل، وليرتبط عباده بعضهم ببعض، نتيجة التبعيض المتفاوت. إذ ورد قوله تعالى ﴿ مِّن شَىۡءٍ ﴾ بصيغة التبعيض، أي: من بعض الذي أعطاكم. فعلى كثرة ما أعطاكم فهو بعضه، بما يفيد كثرة ما عند الله تعالى مما لا يُعد ولا يُحصى. كما يفيد أن ربكم هو المعطي، فهو الذي أقدركم على تحصيل ما أعطاكم، وليس بتدبيركم المنفصل عن تدبير الله تعالى، بل الذي كان منكم هو السعي، ومنه جَلَّ جلاله العطاء والإنعام. فلا تعتقدوا أنكم حصلتم على ما حصلتم عليه من الدنيا هو بفضل حنكتكم وقدرتكم. لينبعث في النفوس الفهم الصحيح، والتواضع عند تحصيل النعمة، وحُسن التدبير. وسؤال الله تعالى النعمة، وشكره سبحانه وتعالى عليها.

ثم بعد بيانه سبحانه لحقيقة الدنيا وما فيها من متاع وزينة، وحظ الإنسان منها، يقرر لعباده أن الذي في الآخرة هو خير من هذا الذي المتاع والزينة التي أشغلتكم عن متاع الآخرة ﴿ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰ ﴾ فالذي في الآخرة عند الله ربكم متصف بالخيرية وبالبقاء ﴿ خَيۡرٌ ﴾ وقد وردت الخيرية بصيغة العموم، لتفيد الأفضلية في كل شيء، بما لا يتصوره الإنسان، ولا يخطر على قلب بشر. وكذلك متصف بالبقاء ﴿ وَأَبۡقَىٰ ﴾ فلا يزول كما هو الحال في الدنيا، بل نعيم دائم لا يزول أبداً ولا يفنى ولا ينقص. مما يتطلب التأمل والتدبر بالمقارنة المفضية والمؤدية إلى التعقل، وأن على العاقل أن يعلق قلبه بالآخرة، ويعمل لها، ولا يُعَلِّق قلبه بالفاني المضمحل، بل بالأعظم والأحسن والأبقى. مما يتطلب وجوب إعمال عقولكم فيما أَخْبَرَكُم به ربكم عَزَّ وجل.

ثم يبين تبارك وتعالى أن خير الآخرة مخصوص به من اتصف بصفتين متلازمتين في هذه الآية، ثم تكتمل صفاتهم الأخرى في الآيات التي بعدها، **فالصفة الأولى**: في هذه الآية هي: الإيمان ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ والإيمان هو التصديق والاعتقاد الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وجميع ما ورد عن الله سبحانه وتعالى، والعمل بشريعته عَزَّ وجل. **والصفة الثانية:** هي التوكل على الله تعالى ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾

أي: التفويض إلى الله تعالى والاعتماد عليه عَزَّ وجل، فيثقون ويعتمدون على ربهم، وبذلك يكونون هم المحصلين لخير الآخرة. مما يفيد أن أقوى عوامل الثبات والطاعة هو قوة الإيمان، والتوكل على الله تعالى، فإنهما مفاتيح الخير في الدنيا والآخرة. ولم يقرن الله تعالى مع الإيمان العمل بالصالحات كما سبق في هذه السورة وغيرها، وذلك أن الإيمان إذا أفرِد اشتمل على القيام بالأعمال الصالحة، التي هي شرائع الدين. وإذا اجتمعا دل كل واحد منهما على خصيصته. فيدخل الإيمان في الأعمال الصالحة، وتدخل الأعمال الصالحة في الإيمان، فبينهما عموم وخصوص.

ومن جمال الوصف ودقة البيان، أن وصف الله تعالى إيمانهم بصيغة الماضي ﴿ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ليفيد تحقق الإيمان منهم. بينما ورد توكلهم بصيغة الفعل المضارع المستمر ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فالتوكل اعتقاد وعمل متواصل ومتتابع مستمر، ومتجدد لا ينقطع ولا ينفك عن المؤمن في حياته أبداً. بينما كان الإيمان بصيغة الماضي ليفيد ثبوته وتجدده بالتوكل الذي لا ينبثق إلا من قوة الإيمان. وفي هذه الدقة الظاهرة لقوة دلالات كلمات القرآن الكريم ومقاصده، وألفاظه ودلالاتها العميقة في معناها وفي مبناها بما يُظهِر ويبين أنها آيات إعجاز، بل في غاية العظمة من الإعجاز.

مما يتطلب التفكير في هذا الإنعام وزواله في الدنيا، بينما إنعام الآخرة لا يفنى ولا ينقص ولا يزول، وليس له وصيف في الدنيا إلا الاسم. وهو أمر وشأن يحث ويدفع الإنسان للتأمل والتفكر والتعقل. وأن يكون تصرفه وفق ما تقتضيه الحياة الآخرة، لما هي عليه من البقاء، وعدم الفناء، وانتفاء المنقصات لأهل الجنة. مما يبين أن منهج هذا الدين في التعليم والدعوة قائم على الحقائق، وإمعان الفكر الذي يصل به الإنسان إلى الحق بعد توفيق الله عَزَّ وجل، وأنه ليس نصح بلا قواعد وبراهين وحجج، بل مبني على براهين من رب العالمين، ليتأكد لكل عاقل أن هذا الدين هو دين الله تعالى الذي أنزله على نبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يستكمل البيان الكريم الصفات الخاصة بمن لهم عند الله تعالى في الآخرة ما هو خير من متاع الدنيا، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ فأظهر السياق الترابط بين هذه الآية والتي قبلها بحرف العطف، الواو ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ فتكون **الصفة الثالثة هي:** ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ فيجتنبون كبائر ما نهى الله تعالى عنه، وقد أفادت دلالة جملة ﴿ كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ ﴾ أنها المعاصي المتعاظمة، الموجبة لإقامة الحدود. والإثم إنما يكون بالعمد والقصد لجميع ما هو محرم. وأما ما يخص عدد الكبائر فقد ذكر العلماء أنها كل ذنب وعد الله تعالى بالنار على من اقترفه. وقيل هي:

الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وشهادة الزور[١] وجاء في الحديث بياناً لأكبر الكبائر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. وجلس وكان متكئاً، فقال: ألا وقول الزور. فمازال يكررها، حتى قلنا ليته سكت)[٢]

ثم ذكر تبارك وتعالى اجتنابهم لفواحش ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ وهي من جملة كبائر الإثم، فجاء تخصيصها بالذكر والتنصيص عليها لإظهار قوة فحشها من بين كبائر الإثم. وقد حوت دلالة ﴿ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ جميع القبائح المتعاظمة، إذ أن الفواحش: اسم جامع لكل ما تعاظم قبحه من الأفعال والأقوال، ومن ذلك الشرك، والزنا والخمر، فذلك أظهر أفعال الفحش. كما تدخل الفواحش ضمن الكبائر، ولكنها أشد لأنها الأشنع فيها، وذلك بقوة فحشها، المتنافي مع الفطرة السليمة، كالقتل، والزنا، وعقوق الوالدين. وهذا من دقائق البيان في استيعاب جميع مفردات المراد. مع تخصيص الخاص عن العام لبيان قوته من بين أفراده. وذلك لبيان عظيم جُرمها، لأن في الإثم التعمد والقصد، وفي الفواحش تعاظم القبح وشناعته من الأفعال والأقوال، كالظلم المتعمد بالاستطالة على الناس. وإذا أُفرد أحدهما جمع الآخر، وإذا أُفرد أحدهما عن الآخر فيكون لإظهار مزيد الشناعة، بيان تعالي بعضها على بعض. ففي تعيين الخاص مع ذكر العام ما يفيد التأكيد والإظهار والتعظيم، وقوة الزجر. وفي هذا البيان من رب العباد ما يفيد التحريض على الْبُعْد عنها وعن بوعثها، وأسباب تحصيلها، حتى يكون المؤمن في منأى عنها، لأن من حام حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

والصفة الرابعة هي: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ والذين جمعوا مع ما سبق أنهم اعتادوا على كظم الغيظ وقت الغضب، فيحلمون ويصفحون ويعفون عن من أغضبهم، فلا يبادرون إلى الانتقام من غيرهم، بل يعالجون الأمر بحكمة، حتى يصبح ذلك سجية لهم، قاصدين بذلك ثواب الله تعالى. مما يبين منزلة الحلم والعفو والصفح، والتعامل بحكمة عند الغضب، بأن لا يسترسل الإنسان في تبعات الغضب، بل يضبط نفسه. لِمَا في ذلك من دفع للشرور. مما يبين فضل دين الله تعالى على العباد، إذ يرغبهم ويشجعهم بالمكافأة العظيمة على ضبط النفس في كل حال، ولا سيما وقت الغضب، لما ينجم عنه من السوء. فالحمد لله على نعمة الإسلام وتشريعه العظيم، الذي يعالج سلوك الإنسان بأحسن الأساليب.

والصفة الخامسة هي: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ ﴾ أي: استجابوا إلى ما أمرهم ربهم به، فأقاموا ما أوجبه عليهم من الدين. ومن دقائق البيان أن قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ ﴾ قد جمعت وشملت جميع

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/١٠٤-١٠٥) وابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٢/١١٤-١١٦)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٢/٢٥١-٢٥٢) برقم (٢٦٥٤)

أنواع الطاعات، واجتناب جميع المنهيات، ثم أفرد بعدها سبحانه وتعالى فريضة الصلاة من بين جميع مفردات ما يستجيبون به لربهم سبحانه وتعالى، لبيان جلال منزلتها.

والصفة السادسة، إذاً هي: ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أي: حافظوا على أوقاتها، وأركانها، وواجباتها، وسننها بأحسن الأداء وأكمله وأتمه. وفي إفراد الصلاة دليل على أهميتها من بين جميع العبادات، وإظهاراً لها، وبيان أهمية العناية بها. كما جعل رتبتها أول أعمال الاستجابة لربهم، ليدل على منزلتها ومكانتها. ووصف سبحانه وتعالى أداءهم للصلاة بلفظ الإقامة ﴿ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ التي تعني الثبات والمداومة، والحفاظ على أركانها وواجباتها وسننها بأحسن الأداء وأكمله وأتمه، مما يفيد وجوب كمال العناية بها. فليس فيها انقطاع، ولا عنها انشغال. كما يشمل الأداء لها أن يكون بأكمل وجه.

والصفة السابعة هي: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ فشأنهم العام فيما بينهم قائم وخاضع للتشاور، بما يفيد تقليب الآراء، ومناقشتها، لتحصيل أفضل ما يمكن من الرأي. لأن في ذلك العظيم من المصالح الاجتماعية. ففي ذلك توحيد الكلمة في الشأن، وتحقيق التآلف، والوصول لأحسن ما يمكن في شأن الأمر الذي هو محط التشاور. وهذا يشمل جميع المستويات، في الدين، وفي المهنة، وفي أمور الأسرة، وفي شأن الأمة، وغير ذلك من دوائر المجتمع المختلفة. مما يبين عظمة هذا الدين في تشريعه، وفي ترغيبه لما شرع، ومنهجه القائم على تحقيق مصلحة الأمة، ومصلحة المجتمع على كل مستوى. بما يُثبِت أن هذا التشريع وهذا القرآن أنه من عند الله عَزَّ وجل.

والصفة الثامنة هي: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فمن أنواع ما رزقهم الله تبارك وتعالى من أنواع الخير ينفقون في سبيله عَزَّ وجل، فيعطون المسكين والفقير وابن السبيل، والسائلين وغيرهم من ذوي الحاجات. ومن دقائق البيان الكريم أنه لم يحدد السياق نوع ما ينفقون، فإن دلالة قوله تعالى ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ وردت بصيغة العموم، لتفيد من كل شيء رزقهم الله تعالى هم ينفقون، ليستوفي بها الإنفاق جميع أنوع الرزق. كما أورد الله تعالى ما عندهم من الرزق بأنه له عَزَّ وجل ﴿ رَزَقْنَٰهُمْ ﴾ فنسب فعل الارزاق له ومنه سبحانه وتعالى، ليبين أن الذي يعطي، هو الذي يُخلف لمن أنفق طاعة لربه سبحانه وتعالى. فهو المعطي وهو الرزاق تبارك وتعالى، فما تنفقون منه، فإنه عطاء من ربكم لكم، وهو الذي يُخلفه لكم بخير وأحسن منه. وفي نسبته إلى الله تعالى اطماع في البر بالنفقة، لأنه هو المعطي، وهو الذي يُخلف للمعطي بما أعطى. وأيضاً أفادت ﴿ وَمِمَّا ﴾ التبعيض، أي ليس جميع ما رزقهم الله تعالى ينفقونه في سبيله، بل شيئاً وبعضاً مما رزقهم الله تعالى، وليس كله وجميعه، بل لم يحدد قدره، لتستوعب تنوع إمكانات وحاجات كل مؤمن، فكل إنسان هو أدرى بمقدار ما

ينفق مما يملك، كما أن في ذلك مراعاة لحاجات المحتاجين وما يكفيهم. فكل مُنفِق يدير تدبير إنفاقه بما يراه مناسباً له ولمن ينفق عليه. وهذا غاية في دقة إدارة الإنفاق، وكذلك غاية في دقة البيان والوصف، كما يفيد هذا البيان مراعاة شريعة الله تعالى الاختلاف والتباين بين الناس في الأرزاق، وتباينهم في العطاء وفي الحاجات، ونوع الحاجات، وكما دَل البيان وأفاد أنه ليس شرطاً أن يتساوى الناس في قدر ما ينفقون في سبيل الله تعالى، بل كل ينفق من سعته.

والصفة التاسعة هي: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ومن صفاتهم أنه إذا تعدى عليهم أحد بغياً وأشراً، فإنهم ينتصرون لأنفسهم برد البغي، ومنعه، حتى لا يتطاول الباغي في بغيه. والبغي هو: الاعتداء والتطاول على الحق بغير حق. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: فالانتصار عند البغي فضيلة كما أن العفو عند الغضب فضيلة، قال النخعي: كانوا يكرهون أن يُذلُّوا أنفسهم، فيجترئ عليهم السفهاء[1] مما يفيد أن الباغي من الأفراد أو الجماعات يلزم فيه الرد، بما يمنع تماديهم وتطاولهم. ومن فوائد هذه الصفة التي هي ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ أنها ضابطة للصفة الرابعة التي هي: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ حتى يعرفوا أن الحلم عند الغضب فضيلة، ولكن لا يمكن قياسه على الباغي. وفي هذا ضبط لحدود العفو.

وقد ورد البيان بأداة الشرط ﴿إِذَآ ﴾ الذي يفيد أن شرط الانتصار إن حدث البغي ﴿إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ بما يعني أنه حال لم يحدث البغي فليس لكم على الغير تعدي. فهو الشرط الذي يحصل به الانتصار على الباغي. مما يدل على الحكمة العظيمة في هذا الدين، بأن جمع بين مكارم الأخلاق في قوله تعالى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ وبين ضبط الحقوق بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ ليتحقق بذلك حفظ حقوق النفس، ورفعتها وعزتها، وعدم إهانتها بالتذلل للباغي. حتى لا يتجرأ على غيره بالبغي. مما يدل على منهج التوازن، وأنه يجب وضع كل شيء موضعه. بل ورد قوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ من باب مدح هذه الصفة، والترغيب في القيام بها. فكما أن هذا الدين يمنع الاعتداء على الغير، فإنه يمنع الاستسلام لأهل الشر. وأن تكون معاملتهم بما يرد شرهم، ويكبحه، ويوقف تطاولهم.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (٥٤١/٤)

ثم يخبر سبحانه بوجوب العدل في صد البغي، وعدم التجاوز في ذلك، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فهذا الانتصار على مَنْ بغى مشروط بالاقتصار على المماثلة من غير زيادة بالتعدي، لإفادة الاقتصاص بمقداره، من غير أن يكون هناك تجاوز في الاقتصاص، بما يحقق في المؤمن ضبط النفس عند إرادة الاقتصاص، وتحقيق كمال العدل، وعدم التجاوز، لتكون الجارحة بالجارحة، والمال بالمال قدراً من غير تجاوز. وهو في كل نوع من أنواع السُّوء، وقد ورد التسمية لها بالسيئة، لما يظهر ويبدر منها من الإساءة التي يستاء منها الإنسان ويمتعض. فوجب العدل في الانتصار بالاقتصار على المماثلة.

ثم يحث تبارك وتعالى على ما هو خير من الاقتصاص وهو العفو ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فمن تعامل مع حدوث وحادثة الإساءة بالعفو ﴿ فَمَنْ عَفَا ﴾ أي: صفح وتنازل عن حقه في الاقتصاص، وجمع مع ذلك الإصلاح ﴿ وَأَصْلَحَ ﴾ بالعفو فيما بينه وبين غيره ﴿ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فثواب عدم اقتصاصه، وإصلاحه كائن على ربه تبارك وتعالى، فهو الذي يتولى الجزاء بكرمه وجوده عَزَّ وجل. وفي هذا تعظيم للجزاء، بالمبالغة في الثواب والمكافأة العظيمة، كما أن في هذا تشجيع وحث على العفو. فقوله تعالى ﴿ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فيه تعظيم للأجر من كل وجه. فالمكافئ هو الله تعالى، فهو العظيم، وبالتالي فإنها مكافأة عظيمة، بل لم يعين ويحدد نوعها ولا قدرها، فقد أبهمها جَلَّ جلاله وكثر عطاؤه، ليفيد التعظيم لها، بأنها بغير حساب. فإن المتولي لها هو الله تعالى الغني، الذي خزائنه لا تنقص. مما يفيد الدفع لإرادة الإنسان نحو الصفح والعفو والإصلاح.

فأسس سبحانه وتعالى أصول التعامل، لتكون ضابطة للسلوك، وأعطى المظلوم مساحة في المعالجة بما هو أنسب للمقام والموقف، وفق تلك الأصول الضابطة للحقوق. وعلى صاحب الحق أن يجتهد في التعامل من حيث العفو والاقتصاص وفق تلك الأصول الضابطة. لتستوعب اختلاف الأحوال والمقامات. وهذا من غزارة البيان، ومن عظيم التشريع الرباني المعجز، الذي يراعي الأحوال، ويضبط التصرفات عن مجاوزتها الحدود، ويحثها على مكارم الأخلاق، حتى في أحلك وأقوى الظروف والأحوال. فالحمد والشكر لله تعالى على إنعامه كله.

ثم يعزز ويقوي سبحانه وتعالى منع الظلم بنفي محبته لعموم الظالمين المتجاوزين في أخذ الحق، وكذلك المبتدئين بالظلم ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فقد نفى تبارك وتعالى محبته لمن ظلم غيره ابتداء، ولمن تجاوز في الاقتصاص. فأخرجهم من محبته التي يتحقق بها الفوز العظيم، مما يدل على أنها عقوبة عظيمة، فإن محبة الله عَزَّ

وجل أثمن وأغلى مطلب عند المؤمن. وقد أطلق البيان نفي المحبة للظالمين ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ لتستوفي وتعم كل ظالم، سواء كان بالابتداء، أو عند التجاوز في أخذ الحق. مما يدل على عناية منهج الله تعالى بالعدل في كل شيء. ونفي محبته للظالمين، مما يحفز المؤمن على تحري العدل، والابتعاد عن الظلم بجميع أنواعه وحالاته.

فقد شرع الله تعالى العدل، وأمر به وأوجبه، وحرم التعدي، فجاز للإنسان الاقتصاص من غير تعدي. والعفو ليس محموداً على الإطلاق، بل يكون أفضل إذا لم يترتب عليه مفسدة. فإن كان عاقبة العفو تؤدي إلى مفسدة، فعدم العفو أفضل. فمن عُرِف عنه ظلم الناس فربما العفو عنه يشجعه على التمادي في ذلك، أما إذا لم يترتب على العفو مفسدة، أو أنه يجر إلى الإصلاح فإنه أفضل[١] وذكر السعدي رحمه الله تعالى مراتب العقوبات بقوله أنه: ذكر الله تعالى في هذه الآية مراتب العقوبات: بأنها على ثلاث مراتب: عدل، وفضل، وظلم. فمرتبة العدل جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص. ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء. وشرط الله تعالى في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق بالعفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في هذه الحال لا يكون مأموراً به[٢] مما يفيد أهمية وضع الأمور موضعها الذي تتحقق به المصلحة.

ثم يؤكد سبحانه أن من اقتص ممن ظلمه فلا سبيل من اللوم عليه، فقال تعالى ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ فمن انتصر بأخذ حقه ممن ظلمه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ فهؤلاء لا حرج عليهم في الاقتصاص بالعدل من غير ظلم. ومن دقائق البيان أن ورد تحديد الانتصار تحديداً دقيقاً، حيث قال تعالى ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ ﴾ أي: أن الانتصار بالاقتصاص يكون بعد وقوع الظلم حقيقة، بما ينفي المبادرة قبل وقوع الظلم، وينتفي كذلك بناء قرار الانتصار على التوجس والتخمين. وبما يفيد التنبيه والتحذير. وهذا من الإعجاز في البيان عن المقصد والمراد بكل دقة. وكذلك على كمال العدل، وعدم التسرع، أو بناء القرار على التخمين. ففي هذا عظيم التحذير من التعدي بكل وجه.

ثم حصر تبارك وتعالى وقوع اللوم على المعتدي ظلماً على غيره، سواء كان ابتداء أو كان حال الاقتصاص، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ فبدأ البيان الكريم بأداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ أي: إنما ينحصر وقوع اللوم

(١) خالد بن حامد الحازمي، أصول الأخلاق الإسلامية، ص (٥٦)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٤/٤٢٩-٤٣٠)

والمؤاخذة والمعاقبة، الذي هو ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾ فإنه ينحصر ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ على الذين يتحقق منهم الظلم لغيرهم. فإن طريق الظلم ومبدأه، وظهور الحجة بالعقوبة منحصرة على الذين يظلمون غيرهم. وكون إقامة الحجة وردت على عموم إيقاع الظلم، فقد استوعب البيان بها سواء كان وقوع الظلم ابتداء، أو كان وقوعه اقتصاصاً بمجاوزة حد المماثلة، مما يفيد أن الاقتصاص الحق من غير ظلم هو الذي يكون من غير زيادة في الاقتصاص.

وأورد وقوع الظلم هنا على جنس الإنسان، ليشمل كل إنسان، حتى غير المؤمن، فلا يجوز ظلمه وقهره. كما ورد الظلم عاماً، ليشمل كل ظلم مهما كان نوعه ودرجته. ثم يمتد سلطان الحق الذي هو السبيل إلى الموصوفون بأنهم ﴿وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ والبغي هو التعدي ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ الذي يُوجِب لهم ما كان منهم من التصرف المتعدي، وإنما هو نتيجة البطر، والأشر، وحب الاستعلاء، بل وصف بغيهم في نفوسهم أنه ممتد معهم في كل أرض يحلون فيها، فهؤلاء عاقبتهم عند الله تعالى العذاب المؤلم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ أي: لهم عذاب مُوجع من شدته، بل ومن شدة مقتهم من الله تعالى أن أشار إليهم باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لإظهارهم وتهديدهم، وأنهم مخصوصون بالعذاب الأليم.

مما يبين عدل الله تعالى. وقوة هذا الدين، ومنهجه القضائي العظيم، الذي يضبط بتشريعه وعقوباته حال الناس. وأن من فاتته عقوبة الدنيا على ظلمه فلن يفوته عذاب الآخرة. وهذا التشريع العظيم من عظائم وفضائل هذا الدين من رب العالمين. كما يؤكد أن هذا التشريع بهذه الدقة لا يمكن إلا أن يكون من الله العزيز الحكيم، وبما يثبت أن هذا القرآن العظيم هو كتاب مُنَزَّل من رب العالمين على رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى أهمية الصبر والعفو، وتقديمه على الاقتصاص الذي هو حق أثبته الله تعالى للمظلوم، فقال عَزَّ وجل ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ فإن من تحلى بالصبر على أذى غيره، وأتبع صبره بالعفو والصفح عنه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: إن تلك الأفعال من الصبر والعفو والصفح ما يستدل بها على أن أصحابها من أهل الهمم العالية، والعزائم القوية الصادقة، لما يتطلب الأمر من رباطة الجأش، وضبط الإرادة، وتطويع النفس ومجاهدتها على لخير، وتطويعها لتحصيل ثواب الله عَزَّ وجل. وأن ذلك الصبر والمغفرة من الأمور التي أكدها الله تعالى، وحث عليها، ورتَّب عليها الأجور العظيمة من عنده سبحانه وتعالى، فاستقوى على نفسه بطاعة لله تعالى، ورجاء ما عنده من الثواب العظيم. فهو غاية التشجيع

من الله تعالى على أن يتمالك الإنسان نفسه، وأن يستقوي على محبة وشغف النفس للانتصار، وأخذ الحق بالحق، فتجاوزته إلى العفو والصفح.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾

يخبر الله تعالى بعظيم قدرته في الهداية والإضلال، فيقول تبارك وتعالى ﴿ **وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ** ﴾ فإن مَن خذله الله تعالى عن الرشاد، فأضله بسبب ظلمه، عقوبة له ﴿ **فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ** ﴾ فليس له أحد بعد الله تعالى يستطيع أن يهديه ويوفقه ويسدده. بما يفيد امتناع كل عون وإرشاد لتحصيل الهداية لمن يُضلله اللهُ سبحانه وتعالى.

ثم يخبر تبارك وتعالى بحال الظالمين عند مرأى العذاب، فيتوجه البيان لكل أحد من الْمُخَاطَبين ﴿ **وَتَرَى** ﴾ وتشاهد ﴿ **ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وظلموا أنبياءهم بالتكذيب والجحود، وظلموا دين الله تعالى وآياته بالنكران، فاستوفوا الظلم من كل وجه، فإنهم ﴿ **لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ** ﴾ لَما عاينوا عذاب الله تعالى يوم القيامة ﴿ **يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ** ﴾ هل لنا يا ربنا من مخرج وطريق وسبيل للرجوع إلى الدنيا من أجل أن نعمل غير الكفر، فنؤمن ونصدق ونُطيع، وذلك من شدة ما رأوا أمامهم من العذاب الشديد. وفي هذا البيان من الله تعالى كشف لحال الكفار قبل وقوع يوم القيامة، لإفادة الإنذار

بواقع مستقبلهم، لعلهم بهذا الإرشاد يرشدون ويطيعون ربهم في الدنيا قبل فوات الأوان، وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ ينذرهم ويحذرهم مما هم قادمون إليه في الآخرة.

ويزداد البيان توضيحاً بالمزيد من كشف ما سيكون عليه الظالمين من العذاب، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ فيا أيها الإنسان فإنك يوم القيامة ترى هؤلاء الظالمين ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا ﴾ أي: ترى هؤلاء الظالمين وهم يُعرَضُون على النار التي سيعَذَّبُون بها ﴿ خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ ﴾ مستكينين استكانة الخوف والوجل والرهبة من مهابة الموقف، ومن حال مصيرهم، فنشأ عنه الخنوع والخضوع، وأصبحت نفوسهم منكسرة من قوة ما أصابهم من الهول، مع المهانة والذل والعجز، والخضوع المصحوب بالانكسار والمهانة. وأما حالة أبصارهم من حيث النظر، فإنهم ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾ أي: يُخفُون نظرهم واتجاه أبصارهم وهم يشاهدون النار، فينظرون إلى النار مسارقة بأبصارهم إليها، لما لحق بهم، ونشأ عندهم من الخوف والذل والمهانة، مع هيبة النار، واضطراب أفئدتهم خوفاً وفزعاً. فهم لا يريدون رؤيتها لهولها، وفي نفس الوقت ينظرونها على أنه واقع لا بد منه، فليس منه مفر. بما يُظهر قوة اضطرابهم النفسي، وما اجتمع عليهم من المهانة والهلع والخوف.

ثم يتجه وينتقل البيان إلى ما يقوله المؤمنون عندما يرون حال الظالمين، فقال عَزَّ وجل عنهم ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ﴾ وقال المؤمنون الذين نجاهم الله تعالى من ذلك العذاب بما كان منهم من الطاعة والانقياد لله رب العالمين، فقالوا ﴿إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ إن الخسارة الحقيقية هي ما يكون يوم القيامة، عندما يفقد الإنسان حظه من النعيم المقيم، ويستبدله بمثوى الجحيم السقيم. يوم يفقد الإنسان نفسه المكاسب العظيمة التي كانت متاحة له في الدنيا، فيجعل اليوم نفسه خاسراً لكل نعيم. إذ أن الخسارة تعني حدوث الغبن بفوات الأفضل وترك الأربح، بما كان منهم من الإعراض عنه. فتسببوا لأنفسهم بالعذاب، وخسروا الجنة والنعيم، وكذلك تحققت لهم الخسارة في أهليهم ﴿خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فمع خسارتهم لأنفسهم، كذلك تحققت لهم الخسارة في أهليهم، فخسروا أهليهم، فلم يكونوا معهم، إما بنجاة أهليهم لإيمانهم، فلم يكونوا معهم، أو بأنهم معهم في النار، ولكن لا يرونهم، فكل مشغول بنفسه، وتأتي خسارتهم لأهليهم على وجه أنهم تسببوا كذلك في خسارة أهليهم بأن اقتدى الأهل بهم.

فهؤلاء هم الذين اكتملت خسارتهم الحقيقة، حتى أنه ليس هناك خسارة تشبه خسارتهم، فهم الذين أوقعوا الخسارة بأنفسهم من النجاة من النار، ففوتوا على أنفسهم الجنة، وكذلك خسروا أهليهم، وهم الأقربون لهم في المعايشة والمؤانسة في الدنيا. فجمعوا بين خسران أنفسهم وبين خسران أهليهم ومحبيهم. فخسران أنفسهم بما كان منهم من الظلم الذي جعلهم يخسرون الفوز بالجنة، فصاروا إلى النار. وأما خسران أهليهم الذين هم أحب الناس إليهم، فيكون بأحد حالين: إما بفقدهم وانعزالهم عنهم، لأنهم مع المؤمنين لإيمانهم، فخسروهم، فلم يكونوا معهم. والحالة الأخرى أنهم أوقعوهم معهم في النار بما كان منهم من الكفر، وأصبح كل منهم مشغول بما هو فيه من العذاب.

ومن دقائق البيان أن شملت خسارتهم لأهليهم الوجهين الكائنين في ذلك: إما بعدم مرافقتهم لمن أسلم من أهليهم إلى الجنة، وإما لأنهم ألحقوا بهم الخسارة بما كان من إغوائهم واقتدائهم بهم، فخسروا أنفسهم وخسروا أهليهم، وألحقوا بهم الخسارة معهم. والمتأمل أن كلا الحالتين ممكنة التحقق، فاستوعب البيان بدقته وإعجاز تراكيب كلامه تلك الحالتين المتوافقتين، غير المتضادتين. ليظهر لكل أحد أن أهذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا من الله سبحانه وتعالى.

ثم أعاد تبارك وتعالى تأكيد خسارة أولئك الظالمين بقوله عَزَّ وجل ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ فبدأ البيان بحرف التنبيه ﴿ أَلَآ ﴾ ثم تلاه حرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ وأعاد تسميتهم بدلالة الظلم ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ إظهاراً لهم بما كان منهم في الحياة الدنيا، مع تشديد التأكيد بحالهم أنهم ﴿ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ فإنهم في العذاب المتصف بالإقامة الدائمة التي لا تنقطع. وفي هذا البيان من الله تعالى كشف لحال الكفار قبل وقوع يوم القيامة، لإفادة الإنذار بواقع مستقبلهم، لعلهم بهذا الإرشاد يرشدون ويطيعون ربهم في الدنيا قبل فوات الأوان، وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ ينذرهم ويحذرهم مما هم قادمون إليه في الآخرة.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى عجزهم ومهانتهم أمام ذلك العذاب المهين الذي لا ينقطع، فيقول تبارك وتعالى ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ لم يكن لهؤلاء ناصر ولا معين يتولى الدفاع عنهم، وإنقاذهم، لأنه لا سلطان إلا سلطان الله تعالى، فكل القدرات متوقفة ومنتهية يوم القيامة. فالملك يومئذٍ لله تعالى. فمن كانوا يعتقدون أنهم أولياء لهم من دون الله تعالى فقد تعذرت نصرتهم لهم ذلك اليوم، فلا شيء يغنيهم من دون الله تعالى، وكل شيء هو دونه سبحانه عَزَّ وجل.

ثم يؤكد ويحذر سبحانه وتعالى، فيقو جَلَّ جلاله ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴾ فإن من يُضله الله تعالى في الدنيا عقوبة له، فليس له سبيل ولا طريق ولا وسيلة في النجاة، ولا العودة إلى الدنيا عندما

يكون الفصل يوم القيامة. ليفيد قوة التحذير والتنبيه، فاحذروا أيها الناس من البطر والأشر، والتمادي في المعصية، فتوبوا إلى ربكم وارجعوا إلى دينه حتى تفوزوا بالفوز العظيم، بدلاً من الخسران المبين.

فبعد تحذيره تبارك وتعالى للناس من العذاب، وما يؤول إليه أهل الظلم يحرض سبحانه وتعالى الناس على الطاعة، بالاستجابة لربهم من قبل أن يحصل لهم ما بينه من العذاب. فقال عَزَّ وجل ﴿ **ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ** ﴾ يأمر الله تعالى عباده بالامتثال لما أمرهم به، واجتناب ما نهاهم عنه ﴿ **ٱسۡتَجِيبُواْ** ﴾ وهو فعل أمر واجب التنفيذ، والمبادرة إليه لأنها استجابة لله تعالى ﴿ **ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم** ﴾ امتثلوا أمر ربكم، بما يفيد التعظيم للأمر وما أمر المأمورين به، لأن الاستجابة المأمورين بها العباد هي ﴿ **لِرَبِّكُم** ﴾ الذي خلقكم، بما يفيد أن التأخر عنها فضلاً عن تركها أو الامتناع عنها يعتبر أمراً قد استوجب العقوبة، لأن الاستجابة هي لربكم من خلال رسوله صلى اله عليه وسلم. ومن دقائق البيان أن الله تعالى لم يقل: أجيبوا ربكم، بل ﴿ **ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم** ﴾ بإضافة حرف السين، للتوكيد.

ثم يعلل لهم سبب الاستجابة منهم لربهم تبارك وتعالى ﴿ **مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ** ﴾ قبل أن يحل بكم يوم العذاب، الذي هو يوم القيامة. وأورد سبحانه وتعالى هذا اليوم بأسلوب التنكير، وعدم تعيينه، ولا تعيين مكانه وزمانه. ليفيد قوة التهديد والتحذير لمن لم يستجب له، فقد يكون في الدنيا، وقد يكون في الآخرة، وقد يتكرر، فيكون في الدنيا، وكذلك في الآخرة. ومن خصائص هذا اليوم أنه ﴿ **لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ** ﴾ أي: لن يرده الله تعالى، لا بتأخير، ولا بإلغاء وقوعه، فإن وقوعه متحقق، فقد قضى وحكم الله تعالى به، فهو كائن لا محالة، وقد انتفى عن هذا اليوم إمكانية استبعاده من الله تعالى الذي قرره. فإذاً هو حاصل، بل وأصبح واجب الحصول في حق من لم يستجب لربه سبحانه وتعالى.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن قوة هذا اليوم، بنفي كل وسيلة يمكن أن يتخذها الإنسان ليتوقى مما سيكون في هذا اليوم الفظيع، فقال عَزَّ وجل ﴿ **مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ** ﴾ فعند ذلك اليوم الموعودون فيه بالعذاب ليس لكم أي وسيلة يمكنكم أن تلجؤوا إليها من أجل الاختفاء حتى تتوقوا وتتقوا ما يكون في ذلك اليوم من العذاب. فليس هناك ما يمكن أن تحترزون وتعتصموا به. بما يفيد ظهوركم وبروزكم واضح ذلك اليوم، واختفاء كل ما يمكن أن يكون من ملجأ يستتر ويتغيب به الإنسان عن ذلك اليوم.

وكذلك ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ أي: ليس لكم ما يمكن أن تتنكرون به، أو تنكرونه. فقد جمع البيان: أنه ليس هناك ما يسعكم من قوة الموقف أن تُنكروا ما كان منكم من الكفر والفسوق، كما لا يمكن لكم أن تجدوا قوة تتنكرون بها. وقد ذكر القرطبي رحمه الله تعالى أقوال بعض أهل العلم في ذلك، فقال: ومالكم من نكير، أي: ناصر ينصركم. قاله مجاهد. وقيل: النكير بمعنى المنكر، كالأليم، بمعنى المؤلم. أي: لا تجدون يومئذ مُنْكِراً لما ينزل بكم من العذاب. حكاه ابن أبي حاتم، وقاله الكلبي. وقال الزجاج: معناه أنهم لا يقدرون أن ينكروا الذنوب التي يُقفُون عليها[١] فاستوفى قوله تعالى ﴿ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾ جميع الأحوال بثلاث كلمات وافيات. مما يدل على قوة السياق إلى درجة الإعجاز البياني الذي يؤكد أن تراكيب ألفاظ هذا البيان لا يمكن أن يكون إلا من عند الله سبحانه وتعالى. فسبحان من جعل الأدلة في سياق كلامه على أنه كلامه جَلَّ جلاله. فأنى لأحد أن يستوفي ذلك بهذه القدرة المتكررة في كتابه تبارك وتعالى. فسبحان الله العظيم.

وفي هذا البيان من الله سبحانه وتعال حث للعباد على التزام الطاعة وكشف وتعرية لحال من لم يستجب له عَزَّ وجل، وتحذير لهم قبل وقوع ذلك اليوم الذي هو يوم العذاب. ولإفادة الإنذار بواقع مستقبلهم، لعلهم بهذا الإرشاد يرشدون ويطيعون ربهم في الدنيا قبل فوات الأوان، وهذا من رحمة الله تعالى بالعباد، إذ ينذرهم ويحذرهم مما هم قادمون إليه.

ثم يخبر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمنهجية وقواعد التعامل مع من أعرض عن دعوته، فقال تبارك وتعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴾ فإن لم يقبل هؤلاء الظالمون بدعوتك، وبيانك الحق الظاهر لهم ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ فليس من تكاليف وظيفة رسالتك إليهم أن تكون رقيباً ومسيطراً على أعمالهم، ومُوكلاً لا تفارقهم، لتحفظ عليهم أعمالهم، وأنك مسؤول عنها. وبالتالي لست مكلف بوجوب إيمانهم، وإجبارهم على الإيمان ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ فمهمتك مقتصرة على دعوتهم، ببيان الحق لهم فقط. فواجب الرسول هو البلاغ، بما يفيد أن الذي على الرسول صلى الله عليه وسلم هو هداية الإرشاد والدلالة على الحق، الذي تقوم به الحجة. وكل إنسان مسؤول عن نفسه.

وفي هذا البيان تطييب ومواساة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم إزاء ما يواجه من قومه المكذبين، وليكون درساً لكل من يدعو إلى الخير، بأن مهمته تنحصر في الإبلاغ والإرشاد، وليس هو مكلف بهداية

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٣٢/١٦)

الناس. مما يبين محدودية المسؤولية للرسول صلى الله عليه وسلم، بأن ليس عليه إلا هداية البيان والدلالة على مراد الله تعالى، والحث على ذلك، وأما هداية التوفيق فليس هو مُوكل بها، وبالتالي لم يكلفه الله تعالى بوجوب هداية من أعرض وتولى، كما أنه لم يُكَلَّف بما لا يطيق من الهيمنة وحفظ أعمال من أعرض وتولى، وأن يُحاسبهم عليها.

وأفادت جملة ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ ﴾ أهمية وضع الاحتمال غير المتوقع، أي: المنافي لما يجب أن يتحقق به الهدف، حتى لا يتفاجأ بما يكون من الأمر في الدعوة، أو في غيرها عند تعيين الأهداف والقيام بأدائها. وقد ورد بما يفيد أنه احتمال خارج عن الأصل، لأن الأصل هو القبول وليس الرفض، لقوة الحجج والبراهين. فهو احتمال خارج عن الأصل. وهذه دقة في التكليف، تُعلم المؤمن أهمية وضع الاحتمالات غير المتوقعة، مهما كانت الوسائل من الوضوح، أو القدرة على تحقيق الهدف، حتى يعرف الْمُكَلَّف كيف يتعامل إزاء ما لم يكن في الحسبان، حين يظهر عند السعي، وفي طريق تحقيق الهدف. وهذه من أهم قواعد إدارة الأعمال، وشؤون الحياة، وهي من أهم قواعد التكليف، وتشريع الأنظمة، حتى يتم معالجة جميع الاحتمالات. مما يدل على أن تشريع الله تعالى مدرسة عظيمة في ذلك، يستلزم استظهارها وتعليمها، فهي تبني في المتلقي كيف يحرر ضوابط الأداء والمسؤوليات.

فحصر وقصر سبحانه وتعالى الوجوب والمسؤولية في الأداء ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ وبذلك نفى التكليف ما هو خارج عن قدرة الْمُكَلَّف ﴿ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ فمهمتك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم مقتصرة فقط على كمال البلاغ، ولا تتحمل مسؤولية ما هو خارج عن قدرتك، من كفرهم وإعراضهم، وذلك بنفي ما لا قدرة له فيه صلى الله عليه وسلم. مما يفيد ألا يُكَلَّف الإنسان بما لا يستطيع مما هو خارج عن قدرته. وهذا من غزارة القرآن في تحرير وتقرير المسؤولية، ليقاس عليها الأمر عند تحرير اللوائح التنظيمية للأعمال. وأهمية الاحتراز، ووضع التوقعات، تداركاً لنفي الحيرة عند حدوث ما لم يكن في الحسبان.

ثم يخبر الله تعالى بحقيقة وأحوال هذا الإنسان عندما تصيبه نعمة من المنعم سبحانه وتعالى، ثم ينتزعها منه تبارك وتعالى. وكذلك عندما تصيبه ضراء، ثم يكشفها الله تعالى عنه بنعمة ضافية كريمة، فإن حال هذا الإنسان عموماً على وجهين سيئين، **فالحالة الأولى:** ﴿ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ﴾ فإن جنس هذا الإنسان، إذا أدركته رحمة من الله تعالى بما يُنعم به عليه سبحانه وتعالى من أنواع رحمته: كالرخاء والصحة، والعافية، والمال، والذرية، والأمن، وغيرها من النعم، فيعيشها بكامل قواه وحواسه، فحاله كما قال تعالى أنه ﴿ فَرِحَ بِهَا ﴾ يدخله السرور والاغتباط، فيجره ذلك للبطر، فلا يحصل منه ما يستدعي بقاؤها من الشكر والعمل الصالح فيها. فهو الفرح الذي تجاوز به إلى حد البطر. وقد أفاد وجود ﴿ إِذَآ ﴾ الظرفية

الشرطية، قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: واجتلاب ﴿إِذَآ﴾ في هذا الشرط، لأنها تدل على تحقق كثرة وقوع شرطها[١] مما يدل على كثرة إنعام الله تعالى، مع قوة البيان والإظهار، لحث الإنسان على فهم واستشعار إنعام الله تعالى عليه، وما يكون منه من المقابلة التي لا تليق بالنعمة ولا بالمنعم سبحانه وتعالى.

وفي هذا البيان من الله تعالى ما يستثير الوقوف عند دلالات هذا النص المبارك، فأولها قوله تعالى ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ والتي بينت وأوضحت أن التدبير والتقدير له عَزَّ وجل، فقد نسب ذلك له عَزَّ وجل، بضمير المتكلم ﴿وَإِنَّآ﴾ ضمير التفخيم والجلال والإجلال، ثم بالضمير المتصل بالإذاقة ﴿أَذَقْنَا﴾ ليفيد التأكيد، ومزيد البيان والإظهار بأنه الله سبحانه وتعالى هو الذي أذاقه. ثم بضمير المتكلم المتصل بحرف الجر ﴿مِنَّا﴾ الذي يؤكد أن إصابة الخير منه سبحانه وتعالى، لا من غيره، ولا منهم لأنفسهم، بل بتسخيره سبحانه وتعالى، وتهيئتهم للأسباب، وتهيئة الأسباب لهم. فهو الذي أغدق على هذا الإنسان برحمته وحكمته وقدرته، بل وجعله يتذوق ما أعطاه ﴿أَذَقْنَا﴾ بما يكشف ويبين حجم النعمة في تعاظمها وكثرتها، وسعة بسطها، حتى كان استشعاره لها هو استشعار المتذوق لها، لأن أدق حالات الاستشعار هي حاسة الذوق، فجاء الوصف لها بأدق الحواس.

ثم سمى الله تعالى نعمته رحمة ﴿رَحْمَةً﴾ وقد وردت عامة، لتستوعب جميع أنواع العطاء من الخير، الذي ليس له حدود ولا قدر محدد ومعين. وكذلك نسب الرحمة المعطاة للعبد أنها له عَزَّ وجل ﴿مِنَّا﴾ ليتأكد أن الذي أعطى هذا الإنسان هو الله تعالى، وأنه أعطاه من ملكه، وسماها رحمة، لأنها إحسان وإنعام وإفضال على العبد بلا مقابل. وأفادت دلالة ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ جنس الإنسان عموماً، ولكن شريعة الله تعالى في دينه القويم تهذب هذا الإنسان وتضبط له سلوكه، وكل ما قوي فهم وإيمان الإنسان بحكمة الله تعالى في تدبيره كان أطوع لله تعالى، وأفهم لمنهج التعامل مع النعمة. فدين الله تعالى يهذب هذا الوصف والحال من الإنسان، ليجعله في أحسن ما يكون عندما تُدركه أنواع النعمة.

والحالة الثانية هي: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ﴾ وإن تحل بجنس هذا الإنسان بلاء، من الشدة، كالمرض، أو الفقر، ونحو ذلك ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ بسبب ما حصل منهم، وبما جَرَّه على نفسه من

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/١٠٩)

الذنوب والمعاصي ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ فينكر ويتجاهل بقية النعم، وكذلك يتجاهل سابق ما كان فيه من النعمة، قبل إصابته بالشدة التي كانت بسبب ما جناه على نفسه. ﴿فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ أي: جاحد للنعمة، فلا يشكر ما كان فيه من نعمة، بل يسترها بيأسه وقنوطه. مما يفيد أن هذه الطبيعة البشرية تحتاج إلى علاج وإصلاح، ومعرفة منهج التحصن حتى لا يتلبس بها. وكل ذلك العلاج في دين الله تعالى.

وتفيد كلمة ﴿كَفُورٞ﴾ الجحود على الإطلاق. أي: فيتنكر وينكر ما كان فيه من النعمة، بجحودها، والانشغال عن غيرها من النعم، وكأنه لم يكن في نعمة من قبل. وفي هذا كشف للطبيعة البشرية حال ما ينغمس هذا الإنسان في نعمة الله تعالى، فإنه لا يحصل منه ما يستدعي بقاؤها من الشكر والعمل الصالح فيها، ثم إذا نزع الله تبارك وتعالى منه تلك النعمة بسبب معصيته، أصابه اليأس والجحود والنسيان لتلك النعم. وفي هذا التحليل ما يستثير الإنسان نحو علاج ذلك وتفاديه، وتجاوزه بالطريقة الصحيحة، والتي يأتي بيانها بعد بيان الصورة الثانية لهذا الإنسان.

ومن دقائق البيان الكريم أن ورود الإصابة بالسيئة جاء سياقه بما يدل على القلة، إذ تقدم حرف ﴿وَإِن﴾ على الإصابة ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ لإفادة قلة وندرة إصابتهم بالسيئة. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: وشأن ﴿وَإِن﴾ تدل على ندرة وقوعه، ولذلك اجتلب ﴿وَإِن﴾ في قوله تعالى ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ﴾ لأن إصابتهم بالسيئة نادرة بالنسبة لإصابتهم بالنعمة[1] فإنه على قلة وندرة إصابتهم بالسيئة فإنه يحصل منهم كفران النعمة بجحودها وإنكارها. بينما ورد الإصابة بالنعمة بحرف ﴿إِذَآ﴾ لإفادة كثرة تحصيل النعمة. وهذا من دقائق البيان الدال على إعجاز نظمه بدقة فائقة لا يمكن إلا أن يكون من الخالق سبحانه وتعالى.

وهذا التشخيص لحال الإنسان، وما هو عليه من الطبيعة البشرية، ما يبين أن منهج الإسلام هو منهج علاج وإصلاح، وتهذيب، وتربية، وتعليم لهذا الإنسان، بما يحقق له سعادة الدنيا والآخرة، وأن منهج الإسلام يُعَلِّم أتباعه ما يجب أن يكونوا عليه، من خلال كثرة البيان وتنوعه، بل ووفق منهجية التحليل والإيضاح الذي وصل إلى الإعجاز في مضمونه وفي بلاغته وبيانه. فإذا عرف الإنسان حاله وفق تشخيص الله تعالى له، استوجب التنبه لذلك، من خلال منهج دينه القويم الذي حث على شكر النعمة بكل وجه للشكر، والصبر عند الشدة، وسؤال الله تعالى العافية، وأن يتذكر الأفضال الأخرى لله تعالى عليه، وأن يلجأ لله تعالى بالدعاء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٠/١٠٩)

والتضرع، وأن يتفقد مسلكه مع ربه، ومواطن التقصير التي بسببها حصل له ما هو فيه من النقمة. فتطبيق شريعة الله تعالى بالامتثال لها هي العلاج الناجع لتربية الإنسان وفق منهج دين الله تعالى.

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ
(٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠) ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ
أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ
حَكِيمٌ (٥١) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن
جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ (٥٣) ﴾

يؤكد الله تبارك وتعالى كمال ملكه لجميع خلقه، وأنه المتصرف فيه كيف يشاء، فقال سبحانه وتعالى ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ فإن ملك السموات والأرض له وحده سبحانه وتعالى، وليس لغيره فيه شيء، ليتقرر بذلك بطلان الشرك، ونفي الشريك، مما يترتب عليه كمال توحيده وإفراده بالألوهية والربوبية والعبادة. فإن لله سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة كل جهل بها وعنها. فهو الذي له ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة.

وقد شملت دلالة ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ كل ما هو مرتفع من الأفلاك والأجرام وغيرها مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وشملت ﴿ وَٱلْأَرْضِ ﴾ كلما هو عليها أو خارج على سطحها، أو بداخلها، مما في بطنها. فاستوعبت ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان ومما غاب عنه، فقصرت حواسه عن إدراكه، وهذا من عظيم البيان في كلام الرحمن.

فهو سبحانه وتعالى مخترع ومبدع هذا الكون، فالذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وهو الذي يجب على العباد طاعته. وبما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته، وسعة وعظمة ما

خلق، الذي دَلَّ على أن كل شيء عبد له، وتحت مشيئته وسلطانه سبحانه وتعالى، وأنه هو القاهر فوق عباده، مما يلزم طاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه.

وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود، بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فهو الذي له ما خلق من السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة. فمن له هذا الملك وله هذه القدرة العظيمة، فلا يُعجزه سبحانه وتعالى بعث العباد، والحساب والجزاء. كما أن مَن هذا ملكه وعظمته، فليس له شريك في هذه العظمة.

ثم يقرر عَزَّ وجل أنه يخلق ما يشاء من الخلق، ويدبره ويصرفه بما يناسب عظيم حكمته في كل شيء، فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ فإن ربكم يخلق ما يريد خلقه ابتداء واختراعاً، من غير مثيل له سابق.

وفي هذا بيان لعظمته تبارك وتعالى. وقد أفادت دلالة ﴿ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ ﴾ قصر الخلق والإنشاء والإيجاد من العدم له وحده عَزَّ وجل، فله الاختراع والابتداع عَزَّ وجل. وما يتبع ذلك من وجوب الحمد والطاعة لمن له كل شيء سبحانه وتعالى، فلا يليق بمخلوق أن يخرج عن طاعة خالقه ومدبره سبحانه وتعالى، أو يعبد غيره، أو يشرك معه غيره في ملكه وخلقه العظيم. وفي هذا تذكير وبيان وتعليم وتعريف بحقيقة الوجود، بأنه له عَزَّ وجل، وإزالة جهل كل جاهل بها وعنها. فهو الذي له ما خلق من السماوات والأرض وما فيهما من مخلوقات، فله الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة.

ثم يتدرج البيان التعليمي من العموم والكل إلى الخصوص، والتخصيص لشأن الإنسان، في ذاته وأشخاصهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ فإن من كمال تصرفه عَزَّ وجل فيكم أيها الناس بما يناسب حكمته العظيمة هو توزيع رزق الذرية من الإناث، ومن الذكور، بما يدل على عجز الإنسان في الاختيار، وأن التدبير له عَزَّ في علاه. ومن ذلك أنه سبحانه وتعالى ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا ﴾ يرزق ويعطي من يشاء من عباده ذرية من الإناث فقط ﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ ويرزق ويعطي من يشاء من عباده ذرية من الذكور فقط. فهو الذي وزَّع هذا الرزق بهذا الكيف وفق حكمته ووفق مشيئته، وليس للأبوين تحديد شيءٍ من ذلك. ليبين لعباده كمال القدرة المطلقة، وكمال الحكمة مع كمال مشيئته سبحانه وتعالى في ذواتكم أيها الناس. مما يستلزم منكم الاستسلام لربكم بهذه الدلائل وهذه الْحِكَم الباهرة. فاعبدوه ووحدوه، وأطيعوا ربكم، وتذرعوا إليه، واسألوه حاجاتكم.

ثم يتدرج البيان إلى إظهار القدرة والحكمة لنوع آخر من العطاء، فقال عَزَّ وجل ﴿ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾ فإن لم يكن ذلك التقدير منه سبحانه وتعالى،

بإفراد الذرية من جنس واحد: إما إناثاً وإما ذكوراً، فيكون تقدير عطائه سبحانه وتعالى هو ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ﴾ أي: يزاوج ويمازج بين الجنسين، فيرزق الزوجين ذكوراً وإناثاً، ذرية من الذكور وذرية من الإناث، فيخلط لهم بالجمع بين النوعين. ﴿ وَيَجْعَـلُ مَن يَشَآءُ عَقِـيمًا ﴾ وقد يجعل باختياره وكمال مشيئته سبحانه وتعالى ﴿ مَن يَشَآءُ عَقِـيمًا ﴾ فلا يلد نهائياً، لحكمته في ذلك. بما يُوجب على العبد أن يرضى بما قسم الله تعالى له، على أي تدبير كان، فهو أعلم بعباده من أنفسهم. وهذا يُلزمهم أن يشكروا الله تعالى على كل نوع من أنواع تدبيره، وأن يتأملوا عظمة قسمته سبحانه وتعالى لخلقه، مما يستوجب أن يتأملوا تدبير ربهم، فيعبدوه ويطيعوه. فقد أظهر الله تبارك وتعالى كمال آياته وبراهينه في العطاء والمنع والخلق والإيجاد على أنه مالك كل شيء، ومدبر كل شيء، وأنه وحده الرزاق الكريم لا غيره. وهو الذي يوزع الأرزاق كيف يشاء، وهو الذي يهيئ الأسباب للعباد، فتواضعوا لربكم، واعرفوا قدركم. مما يفيد أن عليكم أن تعبدوا ربكم وتطيعوه، وتسألوه، وتتضرعوا له، فهو المعطي بحكمته، والممسك بحكمته سبحانه وتعالى، وأنه عَزَّ وجل على كل شيء قدير.

ثم يخبر جَلَّ جلاله عن عظيم علمه، وعظيم تقديره سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيـمٌ قَدِيرٌ ﴾ فإن ربكم عظيم العلم ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيـمٌ ﴾ وهذا تعظيم لعلمه بالمبالغة في علمه إلى الكمال. بما يفيد عليم بكم غاية العلم، فيعطي كل أحد بما يناسبه من العطاء، وكذلك فإن ربكم ﴿ قَدِيرٌ ﴾ أي: قادر على كل شيء، ومُقدِّر الأشياء بما يراه من حكمته وتدبيره، وبالتالي فإن علمه وتدبيره للعبد خير له من تدبير العبد لنفسه، لقصور علم العبد، وقصور رؤيته. وعظيم علم وقدرة الله تعالى. فعلى العباد أن يرضوا ما يحقق ويجلب لهم السعادة، وأن يشكروا الله تعالى على أي حال كان نوع ما أعطى أو نوع ما منع، وأن يتأملوا حكمته، فإنها أعظم مما يرغبون فيه. مما يلزمهم من الخضوع له جَلَّ جلاله، فيعبدوه ويطيعوه. فأظهر الله تبارك كمال آياته وبراهينه في العطاء والمنع والخلق والإيجاد على أنه مالك كل شيء، ومدبر كل شيء، وأنه وحده الرزاق الكريم لا غيره عَزَّ في علاه.

ثم ينتقل السياق الكريم إلى بيان عظمته جَلَّ جلاله في منحى وطريقة الإيحاء إلى من يريد من عباده. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ فبدأ البيان العظيم بنفي مواجهة الله تعالى لعباده وجهاً لوجه فيما يخبرهم به، وذلك لعظمته وجلاله وهيبته التي لا يستطيع المخلوق أن يتحملها، كما كان في تَجَلِّيه سبحانه وتعالى للجبل، فجعله دكاء، فصعق موسى عليه السلام من رؤيته للجبل لا لربه، فكيف لو رأى ربه سبحانه وتعالى.

ولذلك قال تبارك وتعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ فهذا نفي قاطع من أن يكلم الله تعالى إنساناً وجهاً لوجه. وفي هذا رد للمشركين ولليهود ولمن سبق من الأمم الذين يطلبون أن يكلمهم الله تعالى، أو يرونه. فنفى ذلك إطلاقاً. ولذلك ورد النفي لجنس البشر ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ ﴾ ومنهم الأنبياء والمرسلين. فقطع عليهم بهذا النفي القاطع، وبنص كريم منه سبحانه وتعالى ما يطلبون ويقترحون.

ثم حدد تبارك وتعالى طريقة تكليمه بالاستثناء والحصر في ثلاثة أوجه: الوجه الأول: ﴿ إِلَّا وَحْيًا ﴾ وهو الإخبار والإعلام، بأن يُلْقِي الله سبحانه وتعالى الْمُوُحَى به في قلب الْمُوحَى إليه. قال مجاهد رحمه الله تعالى: نفث ينفث في قلبه، فيكون إلهاماً[1] كما أوحى إلى أم موسى، وإلى إبراهيم في ذبح ولده[2] والوجه الثاني: ﴿ أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ كما كلم الله تعالى موسى عليه السلام، دون أن يرى موسى عليه السلام ربه سبحانه وتعالى. ودلالة الحجاب: أن يكلمه ربه بحيث يسمع كلامه ولا يراه، كما حجب رؤية موسى عليه السلام عن أن يرى ربه عَزَّ وجل. والوجه الثالث: ﴿ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ بأن يرسل له رسولاً من الملائكة، كجبريل عليه السلام ﴿ فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ فيوحي بما يشاء الله تعالى من الأمر والنهي، والتشريع.

ثم يخبر سبحانه وتعالى عن مقامه العظيم ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ إن ربكم أيها الناس متعالي المقام والرفعة، والشأن والمقام والصفات ﴿ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ ﴾ من العلو والسمو، وبالتالي كيف تطلبون رؤيته. كما أنه سبحانه وتعالى ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي: الموصوف بكمال الحكمة في أفعاله وأقواله، وتدبيره لشأن خلقه، وكمال الحكم والعدل، والذي يضع الأمور مواضعها، وينزلها منازلها الحقيقية. فهو جَلَّ جلاله حكيم في تدبيره، واختياره، وأحكامه، وتشريعه، واختياره، واصطفائه. ليعطي عباده عظيم الأدب، وأخلاق الخطاب، ومنهج التعريف.

ثم يخبر الله تعالى العباد بأنه بمثل ذلك الوحي الذي بينه لكم، وأوحي به لمن سبق من الأنبياء والمرسلين قد أوحى بمثله لنبيه ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٦/٣٥-٣٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٤/٥٤٤)

مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وبمثل الوحي الذي أوحينا به لمن قبلك من الأنبياء والمرسلين قد أوحينا إليك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد وجه سبحانه وتعالى الخطاب التعليمي للناس من خلال مخاطبة الرسول صلى الله عليه سلم ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ وكالوحي الذي أوحينا به لمن قبلك من الأنبياء والمرسلين أوحينا بمثله لك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم. أي: أوحينا إليك ﴿ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾ أي: من النبوة والرسالة والقرآن بمثل ما أوحينا لمن قبلك من المرسلين.

ثم يبين سبحانه وتعالى عدم معرفة النبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك بشأن الكتب، وتفاصيل الشرائع ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ ﴾ فقبل هذا الوحي الذي أوحينا به إليك من النبوة والقرآن ما كنت تعرف تفاصيل شأن الكتب السابقة ﴿ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ ولا تدري حقيقة تفاصيل الإيمان بأركانه ﴿ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ ﴾ أي: جعلنا الكتاب والإيمان وشريعة ربك عَزَّ وجل نوراً وهداية ﴿ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ ولكن جعلنا ما أوحينا به إليك ﴿ نُورًا ﴾ فسماه سبحانه وتعالى ﴿ نُورًا ﴾ ليدل على أنه يبدد ظلام الجهل، والشرك، والكفر، وعموم أنواع الجهل الذي يمثل ظلام القلوب ﴿ نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ نهدي به من نشاء هدايته من العباد ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وإنك بهذا الدين والقرآن الذي أوحينا به إليك لترشد وتدل العباد ﴿ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: إلى الإسلام، لأنه الطريق والهدي المستقيم، الذي لا عِوج فيه، فإنه يُوصِلُ من أخذ به إلى سعادة الدنيا والآخرة.

ثم بعد أن قال تبارك وتعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يُعَرِّف ويبين جَلَّ جلاله هذا الصراط المستقيم الذي يهدي ويُرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فبدأ التعريف بالتفخيم والتعظيم لهذا الصراط المستقيم، فأضافه تبارك وتعالى إلى اسمه العظيم عَزَّ وجل ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ فأظهر وأعلن عظيم شأنه، وبالتالي تعاظم هذا التشريع من كل وجه، كما أن في ذلك البيان تعظيم للداعي إليه، الذي حمل الرسالة، وأوكل إليه تبلغها، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ لا يحمل الشأن العظيم إلا من ارتفعت منزلته عند ربه جّلَّ في علاه. فإن الصراط المستقيم هو ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ ثم زاد التعظيم والتفخيم لهذا الصراط ببيان عظمة وجلال

من شرعه عَزَّ وجل، فقال جَلَّ شأنه ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ الله المالك للسماوات والأرض وما فيها. فإن ملك السماوات والأرض له وحده سبحانه وتعالى، وليس لغيره فيه شيء، ليتقرر بذلك في النفوس عظمة الله تعالى وعظمة صراط ربنا سبحانه وتعالى، الذي هو دينه، وما يترتب عليه من كمال توحيده، وانفراده بالخلق، وإفراده بالألوهية والربوبية والعبادة. فإن لله سبحانه وتعالى جميع ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات، فإن له الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التدبير، ووجوب الطاعة بالتزام هذا الصراط المستقيم الذي هو دينه وشريعته. فهو الذي له ما خلق من السماوات وما فيها من مخلوقات، وله الأرض وما فيها من مخلوقات. فهو العالم بما ينصلح به عباده، وبما يحقق لهم سعادة الدارين. إذ أن له الملك وله الخلق، وبالتالي له كمال التشريع وكمال التدبير، ووجوب الطاعة. وقد استوعب قوله تعالى ﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ جميع ما خلق الله سبحانه وتعالى مما يراه الإنسان ومما غاب عنه، فقصرت حواسه عن إدراكه، وهذا من عظيم البيان في كلام الرحمن.

فهو سبحانه وتعالى مخترع ومبدع هذا الكون، فالذي اخترع السماوات والأرض بهذه العظمة هو العظيم الذي لا عظيم غيره، وبناء عليه هو العالم بالصراط المستقيم الذي ينصلح به شأن العباد. فهو الذي يجب على العباد طاعته، وامتثال صراطه المستقيم. وبما يفيد كمال ملكه وكمال قدرته. كما يبين عظمة دينه بما أضافه من عظمة الملك ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ مما يلزم وجوب اتباع هذا الصراط المستقيم، بطاعته وتوحيده، وإفراده بالعبادة، والخوف منه، ورجاء ما عنده عَزَّ في علاه. ليتبين بذلك قوة الحث على اتباع دينه سبحانه وتعالى. وهذا من رحمته عَزَّ وجل بعباده، إذ يحثهم بكل وجه على اتباع دينه، حتى يفوزوا بخير الدنيا، وبخير الآخرة.

ثم ختم الله تعالى سورة الشورى ببيان نهاية الدنيا، وأن مصير العباد هو رجوعهم إليه عَزَّ وجل ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فجميع أمور الخلق صائرة إليه يوم القيامة، ليفصل بينهم بالحق جَلَّ جلاله. وقد بدأ البيان بحرف التنبيه ﴿ أَلَآ ﴾ لشد الانتباه إلى ما بعده، وإظهار عظمته، وبيان أهميته ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ فانتبهوا أيها العباد إلى أن مصيركم في النهاية هو الرجوع لربكم، فيحاسبكم، ويُوفِّي كل أحد بما كسب. فعليكم بصراط ربكم المستقيم، الذي هو دينه القويم، الذي أنزله على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

تم بحمد الله وفضله إتمام سورة الشورى، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.